تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السابع

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء السابع

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

العداوة : البغضاء يظهر أثرها فى القول والعمل ، والمودة : محبة يظهر أثرها فى القول والعمل ، والناس هم يهود الحجاز ومشركو العرب ونصارى الحبشة فى عصر التنزيل ،

والقسيسون: واحدهم قسيس وقسوس واحدهم قسٌّ ، وهوالرئيس الديني فوق الشماس ودون الأسقفِّ ، والأصل في القسيسين أن يكونوا من أهل العلم بدينهم وكتبهم لأنهم رعاة، ومفتون ، والرهبان، واحدهم راهب، وهو المتبتل المنقطع في دير أو صومعة للعبادة وحرمان النفس من التنعم بالزوج والولد ولذات الطعام والزينة ، وذكر القسيسين والرهبان للجمع بين العباد والعلماء ، تفيض من الدمع أي تمتلىء دمعا حتى يتدفق من جوانبها لكثرته ، مع الشاهدين أي مع الذين يشهدون بحقية نبيك صلى الله عليه وسلم وكتابك ، الإثابة: المجازاة ، وقوله بما قالوا أي بما قالوه عن اعتقاد .

المعنى الجملي

بعد أن حاج سبحانه وتعالى أهل الكتاب وذكر من مخازيهم أنهم اتخذوا الدين الإسلامي هزوا ولعبا وأن اليهود منهم قالوا يد الله مغلولة وأنهم قتلوا رسلهم تارة وكذبوهم أخرى ، وأن النصارى منهم اعتقدوا عقائد زائفة ، فمنهم من قال المسيح ابن الله ، ومنهم من قال إن الله ثالث ثلاثة ، وقد عابهم على ذلك وكر عليهم بالحجة إثر الحجة لتفنيد ما كانوا يعتقدون .

ذكر هنا أحوالهم في عداوتهم للمؤمنين ومحبتهم لهم ومقدار تلك المحبة والعداوة ، وبين حال المشركين مع المؤمنين بالتبع لهم .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى قال : « بعث النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر رجلا سبعة قسيسين وخمسة رهبانا ينظرون إليه ويسألونه فلما لقوه وقرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وآمنوا . وأنزل الله فيهم « وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر ابن أبي طالب وابن مسعود وعثمان بن مظعون في رهط من أصحابه إلى النجاشي ملك

الحبشة. فلما بلغ ذلك المشركين بعثوا عمرو بن العاص فى رهط منهم ذكروا أنهم سبقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى فقالوا : إنه قد خرج فينا رجل سفّه عقول قريش وأحلامها ، زعم أنه نبى وأنه بعث إليك رهطا ليفسدوا عليك قومك فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم ، قال إن جاءونى نظرت فيما يقولون ، فلما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا إلى باب النجاشى قالوا له استأذن لأولياء الله ، فقال ائذن لهم فمرحبا بأولياء الله ، فلما دخلوا عليه سلموا ، فقال لهم ما يمنعكم أن تحيونى بتحيتى ، قالوا إنا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة ، فقال لهم ما يقول صاحبكم فى عيسى وأمه؟ قالوا : يقول عبد الله ورسوله وكلمة من الله وروح منه ألقاها إلى مريم ، و يقول فى مريم إنها العذراء الطيبة البتول ، قال فأخذ عودا من الأرض فقال : مازاد عيسى وأمه على ما قال صاحبكم هذا العود « أى مثله فى صغره» فكره المشركون قوله وتغيرت له وجوههم فقال: هل تقرءون شيئا مما أنزل عليكم ؟ قالوا نعم . قال فاقرءوا فقرءوا وحوله القسيسون والرهبان وسائر النصارى فجعلت طائفة من القسيسين والرهبان كلما قرءوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق ــ وهذا ما أشار إليه بقوله «ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . و إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

الإيضاح

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) أى قسما لتجدن أيها الرسول أشد الناس عداوة للذين صدقوك واتبعوك وصدقوا بما جئتهم به اليهود والمشركين من عبدة الأوثان الذين اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله .

وأشد ما لاقى النبى صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء ، كان من يهود الحجاز فى المدينة وما حولها ، ومن مشركى العرب ولا سيما مكة وما قرب منها .

وقد كان اليهود والمشركون مشتركين فى بعض الصفات والأخلاق التى اقتضت عداوتهم الشديدة للمؤمنين كالكبر ، والعتو ، والبغى ، وغلبة الحياة المادية ، والأثرة

والقسوة ، وضعف عاطفة الحنان والرحمة ، والعصبية الجنسية ، والحمية القوية ، ولكن مشركى العرب على جاهليتهم كانوا أرق من اليهود قلوبا ، وأعظم سخاء وإيثاراً ، وأكثر حرية فى الفكر واستقلالا فى الرأى .

وقدم سبحانه ذكر اليهود للإشارة إلى تفوقهم على العرب فيما وصفوا به ، فضلا عما امتازوا به من قتل بعض الأنبياء وإيذاء بعض آخر ، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل .

ولم يكن ميلهم مع المسلمين فى البلاد المقدسة والشام والأندلس إلا ميلا وراء مصلحتهم الخاصة ، إذ هم تفيئوا ظلال عدلهم ، واستراحوا به من اضطهاد النصارى فى تلك البلاد .

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) أى ولتجدن أقرب الناس محبة للذين آمنوا بك وصدقوك — الذين قالوا إنا نصارى ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة بحماية المهاجرين الذين أرسلهم صلى الله عليه وسلم فى أول الإسلام من مكة إلى الحبشة خوفا عليهم من مشركيها الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء ليفتنوهم عن دينهم .

ولما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسنهم رداً ، فهرقل ملك الروم فى الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع لجمودهم على التقليد فاكتفى بالرد الحسن ، والمقوقس عظيم القبط فى مصر كان أحسن منه رداً ، وإن لم يكن أكثر منه ميلا إلى الإسلام ، وأرسل للنبى صلى الله عليه وسلم هدية حسنة ، ثم لما فتحت مصر والشام وعرف أهلهما ما للاسلام من مزايا أُهْرِعُوا إلى الدخول فى الدين أفواجا وكان القبط أسرع إليه قبولا .

والخلاصة — إن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به رأوا فى عصره من مودة النصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين ، وأن من

توقف من ملوكهم عن الإسلام فما كان توقفه إلا ضنا بملكه ، وأن النجاشى أصحمة ملك الحبشة قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا ، ولكن الإسلام لم ينتشر فى الحبشة بعد موته ، ولم يهتم المسلمون بإقامة دينهم فى تلك البلاد كما فعلوا فى مصر والشام .

ثم بين الله تعالى سبب مودة النصارى للذين آمنوا فقال :

(ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) أى إن السبب فى هذه المودة أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم التعليم الدينى ويهذبون أخلاقهم ويربون فيهم الآداب والفضائل — ورهباناً يعودونهم الزهد والتقشف والإعراض عن زخرف الدنيا ونعيمها ، ويكبرون فى نفوسهم الخوف من الله والانقطاع لعبادته ، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر أنه الحق ، إذ من فضائل دينهم التواضع والتذلل والخضوع لكل حاكم ، بل إنهم أمروا بمحبة الأعداء ، وإدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن . فكل أولئك يؤثر فى جمهور الأمة وسوادها الأعظم ، وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعا واختياراً ، بخلاف اليهود فإنهم إذا أظهروا الرضا اضطرارا أسروا الكيد وأضمروا المكر ، لأن الشريعة اليهودية تولد فى نفوسهم العصبية الجنسية والحمية القومية ، لأنها خاصة بشعب إسرائيل ، وأحكامها ونصوصها مبنية على ذلك .

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) أى وإذا سمع أولئك الذين قالوا إنا نصارى ما أنزل إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله رحمة للعالمين ترى أعينهم تفيض من الدمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرته ، من أجل ما عرفوه من الحق الذى بيّنه لهم القرآن الكريم ولم يمنعهم ما يمنع غيرهم من عتو واستكبار .

ثم ذكر سبحانه ما يكون منهم من القول إثر بيان ما كان من حالهم فقال :

(يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) أى يقولون هذه المقالة قاصدين بها

إنشاء الإيمان والتضرع إلى الله والخضوع له بأن يتقبله منهم ويكتبهم مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين جعلهم الله تعالى شهداء على الناس ، لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم ومما يتناقلونه عن أسلافهم أن النبي الأخير الذى يكمل به الدين ويتم به التشريع العام يكون متبعوه شهداء على الناس ويكونون حجة على المشركين والمبطلين كما جاء فى الآية الأخرى « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » .

(وما لنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) هذا من تتمة كلامهم الذى قالوه ، والمعنى الذى أرادوه — أى أىّ مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو ، ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان هذا النبي الكريم ، بعد أن ظهر لنا أنه هو روح الحق الذى بشر به المسيح ؟ وإننا لنطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة والفضائل والآداب الكاملة ، وهم أتباع هذا النبي الكريم الذين استبان لنا أثر صلاحهم وشاهدناه بأعيننا بعد ما كان منهم من فساد فى الأرض وعتو كبير فى جاهليتهم .

والخلاصة ـ إنه لا مانع لنا من هذا الإيمان بعد أن تظاهرت أسبابه وتحققت موجباته فوجب علينا الجرى على سننه واتباع نهجه وطريقه .

(فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) أى فجزاهم الله وأعطاهم من الثواب بما نطقت به ألسنتهم معبراً عما فى قلوبهم من خالص الإيمان وصحيح الاعتقاد جنات وحدائق فى دار النعيم تجرى من تحت أشجارها الوارفة الظلال ، الأنهارُ التى تسيل مياهها سلسبيلا ، يخلدون فيها أبدا فلا يسلبها منهم أحد ، ولا هم يرغبون عنها ويودون لو تركوها ، ومثل هذا الجزاء قد أعده الله لعباده الذين أخلصوا فى عقائدهم وأحسنوا أعمالهم ، وعلينا أن نقف فى وصف نعيم الآخرة على ما جاء به القرآن الكريم وصحت به السنة النبوية

ولا نعدو ذلك إلى ما وراءه ، فإن النعيم الروحانى والرضوان الإلهى لايمكن أن يعبر عنه الكلام ولا يحيط به الوصف ، فنحن فى عالم يخالف ذلك العالم فى أوصافه وخواصه ، مهما أكثرنا من الوصف ، فلا نصل إلى شىء مما أعده الله لهم هنالك « فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وبعد أن بين سبحانه ما أعد الله لعباده المحسنين من عظيم الثواب جزاء صادق إيمانهم ذكر هنا جزاء المسيئين إلى أنفسهم بالكفران والتكذيب جريا على سنة القرآن فى الجمع بين الوعد والوعيد قال :

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) الجاحم والجحيم : ما اشتد حره من النار، أى وأما الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا بآيات كتابه فأولئك هم أصحاب النار وسكانها والمقيمون فيها لايبرحونها .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) .

المعنى الجملى

بعد أن مدح سبحانه النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين وذكر من أسباب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا ، ظن المؤمنون أن فى هذا ترغيبا فى الرهبانية وظن الميالون للتقشف والزهد أنها منزلة تقربهم إلى الله ، ولن تتحقق إلا بترك التمتع بالطيبات من الطعام واللباس والنساء إما دائما كامتناع الرهبان من الزواج ، وإما فى أوقات معينة كأنواع الصيام التى ابتدعوها ، فأزال الله هذا الظن وقطع عرق هذا الوهم بذلك النهى الصريح .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : (يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) قال نزلت هذه الآية فى رهط من الصحابة قالوا نقطع مذا كيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما تفعل الرهبان فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتى فهو منى ، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى ابن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة وقدامة تبتلوا فجلسوا فى البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل ، وهموا بالاختصاء وأجمعوا على القيام بالليل وصيام النهار فنزلت الآية : « يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم » الآية . فلما نزلت بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن لأنفسكم حقا ، وإن لأعينكم حقا ، وإن لأهلكم حقا ، فصلوا وناموا ، وصوموا وأفطروا فليس منا من ترك سنتنا » فقالوا اللهم صدقنا واتبعنا ما أنزلت مع الرسول .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الطيبات الأشياء التى تستلذها النفوس وتميل إليها القلوب أى لاتحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات بأن تتركوا التمتع بها عمدا تنسكا وتقربا إلى الله ، ولا تعتدوا فيها وتتجاوزوا حد الاعتدال إلى الإسراف الضار بالجسد بأن تزيدوا على الشبع والرى ، أو تجعلوا التمتع بها أكبر همكم فى الحياة ، أو تشغلكم عن الأمور النافعة من العلوم والأعمال المفيدة لكم ولبنى وطنكم ، والآية بمعنى قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » أو لاتعتدوها بتجاوزها إلى الخبائث المحرمة .

والخلاصة - إن الاعتداء يشمل أمرين الاعتداء فى الشىء نفسه بالإسراف فيه والاعتداء بتجاوزه إلى غيره مما ليس من جنسه وهو الخبائث .

(إن الله لايحب المعتدين) أى لايحب الله من يتجاوز حد شرائعه ولو بقصد عبادته وتحريم طيباته التى أحلها ، سواء أكان التحريم من غير التزام بيمين أو نذر أو بالتزام ، وكل منهما غير جائز .

والالتزام قد يكون لرياضة النفس وتهذيبها بالحرمان من الطيبات ، وقد يكون ناشئا عن بادرة غضب من زوجة أو ولد كمن يحلف بالله أو بالطلاق ألا يأكل من هذا الطعام أونحوه من المباحات ، أو يقول إن فعل كذا فهو برىء من الإسلام أو من الله ورسوله أو نحو ذلك ؛ وكل هذا منهى عنه شرعا ولا يحرم على أحد شىء منها يحرمه على نفسه بهذه الأقوال ، ولا كفارة فى يمين يحلفه الحالف فى نحو ذلك عند الشافعى .

وتحريم الطيبات والزينة وتعذيب النفس من العبادات المأثورة عند قدماء اليهود واليونان قلدهم فيها أهل الكتاب خصوصا النصارى فإنهم قد شددوا على أنفسهم وحرموا عليها ما لم تحرمه الكتب المقدسة على ما فيها من الشدة والصرامة والمبالغة فى الزهد .

ولما جاء الإسلام وأرسل الله نبيه محمدا خاتم النبيين بما فيه السعادة التامة للبشر فى دنياهم وآخرتهم أباح للبشر على لسانه الزينة والطيبات وأرشدهم إلى إعطاء البدن حقه والروح حقه ، فالإنسان ما هو إلا روح وجسد فيجب العدل بينهما ، وبذا كانت الأمة الإسلامية أمة وسطا تشهد على جميع الأمم وتكون حجة عليها يوم القيامة .

والحكمة فى ذلك النهى أن الله يحب أن يستعمل عباده نعمه فيما خلقت لأجله ويشكروه على ذلك ، ويكره لهم أن يجنوا على الشريعة التى شرعها لهم فيغلوا فيها بتحريم ما لم يحرمه ، كما يكره لهم أن يفرطوا فيها بإباحة ما حرمه أو ترك ما فرضه ،

وقد أشار إلى ذلك بقوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » وورد فى الأثر « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .

(وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أى وكلوا مما رزقكم الله من الحلال فى نفسه لا من المحرمات كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ، ومن الحلال فى كسبه وتناوله بألا يكون ربا ولا سحتا ولا سرقة ، مع كونه مستلذا غير مستقذر لذاته أو لطارئ يطرأ عليه من فساد أو تغير لطول مكث ونحوه .

والأكل فى الآية يراد به التمتع الشامل للشرب ونحوه من حلال غير مسكر ولا ضار ، ومن كل طيب غير مستقذر فى ذاته أو لطارئ يطرأ عليه .

والخلاصة ـ إنه ينبغى للمؤمن أن يتمتع بما تيسر له من الطيبات بلا تأثم ولا تحرج ويحضر قلبه أنه عامل بشرع الله مقيم لسنة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، شاكر له بالاعتراف والحمد والثناء عليه ، كما أن امتناعه عن الطيبات التى رزقه الله إياها مع الداعية الفطرية إلى الاستمتاع بها ، إثم يجنيه على نفسه فى الدنيا ويستحق به عقاب الآخرة لزيادته فى دين الله قربات لم يأذن بها ، ولإضاعة حقوق الله وحقوق عباده كإضاعة حقوق امرأته وعياله ، والتحريم والتحليل تشريع وهو من حقوق الله ، فمن انتحله لنفسه كان مدعيا الربوبية أو كالمدعى لها .

وعن الحسن البصرى : إن الله أدب عباده فأحسن أدبهم فقال : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ » ما عاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه . وعنه أنه قيل له فلان لا يأكل الفالوذج ويقول لا أؤدى شكره ، قال أفيشرب الماء البارد ؟ قالوا نعم ، قال إنه جاهل ، إن نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذج (البلوظة) .

(واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أى اتقوه فى الأكل واللباس والنساء وغيرها ، فلا تفتاتوا عليه فى تحليل ولا تحريم ، ولا تعتدوا حدوده فيما أحل وما حرم

إذ من جعل شهوة بطنه أكبر همه كان من المسرفين، ومن بالغ فى الشبع وعرّض معدته وأمعاءه للتخمة كان من المسرفين ، ومن أنفق فى ذلك أكثر من طاقته وعرّض نفسه لذل الدَّين أو أكل أموال الناس بالباطل فهو من المسرفين والله يقول « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » .

والخلاصة ــ أن هدى القرآن فى الطيبات هو ماتقتضيه الفطرة السليمة المعتدلة من التمتع بها مع الاعتدال والتزام الحلال ، والاعتدال هو الصراط المستقيم الذى يقل سالكه ، فكثير من الناس يحيدون عنه ويميلون فى التمتع إلى جانب الإفراط والإسراف ، ويكونون كالأنعام بل أضل لأنهم يجنون على أنفسهم حتى قال بعض الحكماء : إن أكثر الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم .

وقليلون منهم ينحرفون إلى جانب التفريط والتقتير إما اضطرارا لبؤسهم وعُدْمهم ، و إما اختيارا كالزهاد والمتقشفين .

وسبيل الاعتدال سبيل شاقة على النفوس عسرة على سالكها كلها تدل على فضيلة العقل ورجحانه .

والمعروف من سيرة الرسول أنه كان يأكل ما وجده ، فتارة يأكل أطيب الطعام كلحوم الأنعام والطير والدجاج ، وتارة يأكل أخشنه كخبز الشعير بالملح أو الزيت أو الخل ، وحينا يجوع وأخرى يشبع ، فكان فى كل ذلك قدوة للموسر والمعسر .

وما كان يهمه أمر الطعام ، لكنه كان يعنى بأمر الشراب ففى حديث عائشة « كان أحب الشراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلو البارد » قال المحدثون : ويدخل فى ذلك الماء القراح والماء المحلَّى بالعسل أو نقيع التمر أو الزبيب .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ

مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ؛ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) .

تفسير المفردات

اللغو : فى اليمين قول الرجل فى الكلام من غير قصد لا والله و بلى والله ، بما عقدتم الأيمان أى بما صممتم عليه منها وقصدتموه ، وأصل العقد نقيض الحل ، فعقد الأيمان توكيدها بالقصد والغرض الصحيح ، وتعقيدها: المبالغة فى توكيدها، وأصل الكفارة من الكفر ، وهو الستر والتغطية ثم صارت فى اصطلاح الشرع اسما لأعمال تكفر بعض الذنوب والمؤاخذات أى تغطيها وتخفيها حتى لا يكون لها أثر يؤاخذ به المرء لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، والأوسط أى الأغلب من الطعام فى البيوت لا الدون الذى يتقشف به أحيانا ولا الأعلى الذى يتوسع به أحيانا أخرى ، وتحرير الرقبة : هو إعتاق الرقيق المملوك .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه وتعالى عن تحريم الطيبات وعن الاعتداء فيها وتجاوز الحدود ، لأن قوما من المسلمين تنسكوا وحرموا على أنفسهم اللحم والنساء وغيرها من الطيبات تقربا إلى الله ـ سألوا عما يصنعون بأيمانهم التى حلفوا عليها فأنزل الله تعالى هذه الآية جوابا لهم عما سألوا .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت (يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) فى القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى: «لا يؤاخذكم

الله باللغو فى أيمانكم)» وأخرج أبو الشيخ عن يعلى بن مسلم قال: سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية . . . قال اقرأ ما قبلها فقرأت (يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم إلى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) .

الإيضاح

(لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) أى لا يؤاخذكم الله باللغو أى بالأيمان التى تحلفونها بلا قصد كما يقول الرجل فى كلامه بدون قصد لا والله و بلى والله ، فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة فى الدنيا ولا إثم وعقوبة فى الآخرة .

(ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) أى ولكن يؤاخذكم بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه ، وهذه المؤاخذة بينها الله بعد بقوله :

(فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) أى فالذى يكفر عقد اليمين إذا نقض أو إذا أريد نقضه بالحنث به هو إحدى هذه المبرات الثلاث على سبيل التخيير :

(١) إطعام عشرة مساكين وجبة واحدة لكل منهم من الطعام الغالب الذى يأكله أهلوكم فى بيوتكم لا من أردئه الذى يتقشفون به تارة ، ولا من أعلاه الذى يتوسعون به تارة أخرى كطعام العيد ونحوه مما تكرم به الأضياف فمن كان أكثر طعام أهله خبز البر وأكثر إدامه اللحم بالخضر أو بدونها فلا يجزئ ما دون ذلك مما يأكلونه إذا قرفت أنفسهم من كثرة أكل الدسم ليعود إليها نشاطها ، والأعلى مجزئ على كل حال لأنه من الوسط وزيادة، والثريد بالمرق وقليل من اللحم ، أو الخبز مع الملوخية ، أو الرز أو العدس، من أوسط الطعام فى مصر وكثير من الأقطار الشرقية الآن ، وكان التمر أوسط طعام أهل المدينة فى العصر الأول ، وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام .

(٢) كسوة عشرة مساكين ، وهى تختلف باختلاف البلاد والأزمنة كالطعام فيجزئ فى مصر القميص الطويل الذى يسمى (بالجلابية) مع السراويل أو بدونه ، وهذا يساوى الإزار والرداء أو العباءة فى العصر الأول ولا يجزئ ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة ، ولا ما يلبس فى الرجلين من الأحذية والجوارب ولا نحو منديل أو منشفة .

(٣) تحرير رقبة أى إعتاق رقيق ، وغلب استعمال الرقبة فى المملوك والأسير ، وقد يعبر أحياناً عن ذلك بفك الرقبة كقوله تعالى : « فَكُّ رَقَبَةٍ » ولا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة فيجزئ عتق الكافرة عند أبى حنيفة ، واشترط الشافعى ومالك وأحمد إيمانها .

(فمن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام) أى فمن لم يستطع واحدا من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات ، فإن عجز عن ذلك لمرض ، صام عند القدرة ، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته .

والاستطاعة أن يجد ذلك القدر فاضلا عن قوته وقوت عياله يومه وليلته وعن كسوته بقدر ما يطعم أو يكسو ، وقد روى ابن مَرْدويهْ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت آية الكفارة قال حذيفة يارسول الله نحن بالخيار فقال صلى الله عليه وسلم « أنت بالخيار إن شئت أعتقت ، وإن شئت كسوت وإن شئت أطعمت فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات » .

(ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) بالله أو بأحد أسمائه وحنثتم أو أردتم الحنث باليمين

(واحفظوا أيمانكم) فلا تبذلوها فى أتفه الأمور وأحقرها ، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلا عن الأيمان الكاذبة قال تعالى : « وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ » وإذا حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه ولا تحنثوا فيه إلا لضرورة تعرض أو مصلحة تجعل الحنث راجحاً .

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) أى وعلى هذا النحو الشافى الوافى يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه ، ليعدكم ويؤهلكم بذلك

إلى شكر نعمه على الوجه الذى يحبه ويرضاه ويكون سببا فى المزيد من فضله وإحسانه .

وها هنا مسائل تتعلق بالأيمان يجمل بك أن تعرفها تكملة لدينك :

١ — لايجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته ؛ قال صلى الله عليه وسلم « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر ، ورويا أيضا عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وروى أحمد والبخارى عن ابن عمر قال: «كان أكثر مايحلف به النبى صلى الله عليه وسلم لاومقلب القلوب »

والمحرم أن يحلف بغير الله حلفا يلتزم به ما حلف عليه والبر به فعلا أو تركا ، لأن الشارع جعل هـذا خاصا بالحلف بالله وأسمائه وصفاته ، أما ما يجىء لتأكيد الكلام ويجرى على ألسنة الناس دون قصد لليمين فلا يدخل فى باب النهى نحو قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابى « أفلح وأبيه إن صدق » .

ويدخل فى النهى الحلف بالنبى والكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيما يليق به ، ولقد كان غلوّ الناس فى تعظيم أنبيائهم والصالحين منهم سببا فى هدم الدين واستبدال الوثنية به .

٢ — يجوز الحنث لمصلحة راجحة مع التكفير قبله لما رواه أحمد والشيخان فى صحيحيهما عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فائت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وفى لفظ عن أبى داود والنسائى « فكفر عن يمينك ثم ائت الذى هو خير » ودل اختلاف الرواية فى تقديم الأمر بالكفارة أو تأخيره على جواز الأمرين .

والحلف باعتبار المحلوف عليه أقسام :

(ا) حلف على فعل واجب أو ترك حرام ، وهـذا تأكيد لما كلف الله به فيحرم الحنث ويكون الإثم مضاعفا .

(ب) حلف على ترك واجب أو فعل محرم ، ويجب فى هذا الحنث لأن اليمين معصية ، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما أو منع ذى حق حقه الواجب له ، والحلف على ترك المباح كالطيب من الطعام ، فإن فى ذلك تشريعا بتحريم ما أحل الله كما فعلت الجاهلية فى تحريم بعض الطيبات .

(حـ) حلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، وهذا طاعة يندب له الوفاء به ويكره الحنث ، ومن ذلك الحلف على ترك طعام معين كالطعام الذى فى هذه الصحفة مثلا ، كما فعل عبد الله بن رواحة فى تحريمه الطعام على نفسه ثم أكله منه لأجل الضيف ، فقدأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم « أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له فقال لامرأته حبست ضيفى من أجلى ؟ هو علىّ حرام . فقالت امرأته هو علىّ حرام ، قال الضيف هو علىّ حرام ، فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا باسم الله ثم ذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قد أصبت » فأنزل الله « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ » .

٣ — الأيمان ثلاثة أقسام :

(ا) ما ليس من أيمان المسلمين كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وتربتهم وهذه يمين غير منعقدة ، ولا كفارة فيها ، بل هى منهى عنها نهى تحريم لما تقدم من الأحاديث .

(ب) يمين بالله تعالى كقوله والله لأفعلن ، وهذه يمين منعقدة فيها الكفارة عند الحنث .

(حـ) أيمان فى معنى الحلف بالله يريد بها الحالف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق كقوله إن فعلت كذا فعلى صيام شهر ، أو الحج إلى بيت الله ، أو الحل علىّ حرام لا أفعل كذا ، أو الطلاق يلزمنى لأفعلنّ كذا ،

أو إن فعلته فنسائى طوالق أو عبيدى أحرار ، أو كل ما أملكه صدقة أو نحو ذلك .
والصحيح الموافق للأقوال الثابتة عن الصحابة ، وعليه يدل الكتاب والسنة أنه يجزئه كفارة يمين فى جميع ذلك كما قال تعالى : « ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ » وقال : « قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ » وثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » .

٤ — الأيمان مبنية على العرف والنية لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع ، فمن حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لا يحنث وإن سماه الله لحما طريا إلا إن نواه أو كان يدخل فى عموم اللحم فى عرف قومه ، كما أن من يحلف غيره يمينا على شىء فالعبرة بنية المحلّف لا الحالف ، فقد روى مسلم وابن ماجه « اليمين على نية المستحلف » .

واليمين الغموس التى يهضم بها الحق أو يقصد بها الخيانة والغش لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لابد من التوبة وأداء الحق والاستقامة ؛ قال تعالى : « وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين صَبْرٍ وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان » رواه البخارى ومسلم .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

شرح المفردات

الخمر : كل شراب مسكر ، والميسر : لغة القمار بالقداح فى كل شىء ثم استعمل فى كل مقامرة ، والأنصاب : حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وروى أنهم كانوا يعبدونها ويتقربون إليها ، والأزلام : قداح أى قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم ، والرجس: المستقذر حسا أو معنى، يقال رجل رجس ورجال أرجاس ، والرجس على أوجه : إما من جهة الطبع ، وإما من جهة العقل ، وإما من جهة الشرع كالخمر والميسر ، وإما من كل ذلك كالميتة لأنها تعاف طبعا وعقلا وشرعا ، والعداوة: تجاوز الحق إلى الإيذاء ، وطعم الشىء يطعمه: ذاق طعمه ، ثم استعمل فى ذوق طعم الشىء من طعام وشراب ، ومن الأول « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أى أكلتم، ومن الثانى « فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » أى من لم يذق طعم مائه .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن تحريم ما أحل الله من الطيبات وأمر بأكل ما رزق الله من الحلال الطيب وكان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر، لاجرم أن بين عز اسمه أنهما غير داخلين فيما يحل ، بل هما مما يحرم؛ وقد روى

ابن جرير وابن مَرْدوَيْهِ فى سبب نزول الآيات أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: « فىّ نزل تحريم الخمر — صنع رجل من الأنصار طعاما فدعانا فأتاه ناس فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر وذلك قبل تحريمها فتفاخروا فقالت الأنصار : الأنصار خير . وقالت قريش : قريش خير ، فأهوى رجل بلَحْى جزور (فك رأس جزور) فضرب على أنفى ففزره . قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فنزلت» .

وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا ، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته فيقول : صنع بى هـذا أخى فلان والله لو كان رءوفا رحيما ما صنع بى هذا ، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم فأنزل الله هذه الآية (يأيها الذين آمنوا إنمـا الخمر والميسر إلى قوله فهل أنتم منتهون) فقال ناس من المتكلفين : هى رجس وهى فى بطن فلان قتل يوم بدر ، وفى بطن فلان قتل يوم أحد ، فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية .

وفى مسند أحمد ومسند أبى داود والترمذى « أن عمر كان يدعو الله تعالى : اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فلما نزلت آية البقرة قرأها عليه النبى صلى الله عليه وسلم فظل على دعائه ، وكذلك لما نزلت آية النساء ، فلما نزلت آية المائدة دُعى فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى (فهل أنتم منتهون) قال انتهينا انتهينا » .

والحـكمة فى تحريم الخمر بالتدريج أن الناس كانوا مغرمين بحبها كلفين بها ، فلو حرمت فى أول الإسلام لكان تحريمها صارفا لـكثير من المدمنين لها عن الإسلام ومن ثم جاء تحريمها أولا فى سورة البقرة على وجه فيه مجال للاجتهاد فيتركها من لم تتمـكن فتنتها من نفسه ، ثم ذكرها فى سورة النساء بما يقتضى تحريمها فى الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، إذ نهى عن القرب من الصلاة فى حال السكر فلم يبق لمن يصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء وضرره قليل ، والصبوح من بعد

صلاة الفجر لمن لا عمل له فلا يخشى أن يمتد سكره إلى وقت الظهر ، ثم تركهم الله على هذه الحال زمنا قوى فيه الدين وكثرت الوقائع التى ظهر لهم بها إثمها وضررها فحرمها تحريما باتا لا هوادة فيه .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت فى البقرة « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » شربها قوم لقوله (ومنافع للناس) وتركها قوم لقوله (إثم كبير) منهم عثمان بن مظعون حتى نزلت الآية التى فى النساء « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فتركها قوم وشربها قوم يتركونها بالنهار حين الصلاة و يشربونها بالليل ، حتى نزلت الآية التى فى المائدة (إنما الخمر والميسر) الآية قال عمر : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً لك وسحقاً . فتركها الناس ووقع فى صدور أناس منها ، وقالوا ما حرم علينا شىء أشد من الخمر ، حتى جعل الرجل يلقى صاحبه فيقول إن فى نفسى شيئا فيقول صاحبه لعلك تذكر الخمر ، فيقول نعم ، فيقول إن فى نفسى مثل مافى نفسك حتى ذكر ذلك قوم واجتمعوا فيه فقالوا : كيف نتكلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد (حاضر) وخافوا أن ينزل فيهم (أى قرآن) فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعدوا له حجة فقالوا : أرأيت حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش أليسوا فى الجنة ؟ قال بلى ، قالوا أليسوا قد مضوا وهم يشربون الخمر ؟ فحرم علينا شىء دخلوا الجنة وهم يشربونه ؟ فقال : (قد سمع الله ما قلتم ، فإن شاء أجابكم) فأنزل الله : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟) فقالوا انتهينا . ونزل فى الذين ذكروا حمزة وأصحابه (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله إن الخمر التى تشربونها والميسر الذى تتياسرونه والأنصاب التى تذبحون عندها والأزلام التى تستقسمون بها إثم سخطه الله وكرهه لكم ، وهو من عمل الشيطان وتحسينه لكم لامن الأعمال التى ندبكم إليها ربكم ولا مما يرضاه لكم .

(فاجتنبوه لعلكم تفلحون) أى فاتركوا هذا الرجس ولا تعملوه وكونوا فى جانب غير الجانب الذى هو فيه ، رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وسلامة أبدانكم والتواد فيما بينكم .

وبعد أن أمر الله باجتناب الخمر والميسر ذكر أن فيهما مفسدتين إحداهما دنيوية وثانيتهما دينية وقد أشار إليهما بقوله :

(إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) أى إن الشيطان يريد لكم شرب الخمر ومياسرتكم بالقداح ليعادى بعضكم بعضا ويبغّض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمياسرة ، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان وجمعه بينكم بأخوّة الإسلام ، ويصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذى به صلاح دنياكم وآخرتكم ، وعن الصلاة التى فرضها عليكم تزكية لنفوسكم وتطهيرا لقلوبكم ؛ أما كون الخمر سببا لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس حتى الأصدقاء منهم ، فلأن شارب الخمر يسكر فيفقد العقل الذى يمنع الإنسان من الأقوال والأعمال القبيحة التى تسوء الناس ، كما يستولى عليه حب الفخر الكاذب ويسرع إليه الغضب بالباطل ، وكثيرا ما يجتمع الشّرب على مائدة الشراب فيثير السكر كثيرا من ألوان البغضاء بينهم ، وقد ينشأ القتل والضرب والسلب والفسق والفجور وإفشاء الأسرار وهتك الأستار وخيانة الحكومات والأوطان .

وأما الميسر فهو مثار العداوة والبغضاء بين المتقامرين ، فإن تعداهم فإلى الشامتين والعائبين ومن تضيع عليهم حقوقهم من الدائنين وغير الدائنين ، وكثيرا ما يفرط المقامر فى حقوق الوالدين والزوج والأولاد حتى يوشك أن يمقته كل أحد .

والميسر مع ما فيه من التوسعة على المحتاجين ، فيه إجحاف بأرباب الأموال ، لأن من صار مغلوبا فى القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه رجاء أن يغلب فيه مرة أخرى ، وقد يتفق ألا يحصل له ذلك إلى ألا يبقى له شىء من المال ، ولا شك أنه بعد ذلك سيصير فقيرا مسكينا ، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا له غالبين.

وأما صد الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة (وهما مفسدتهما الدينية) فذلك أظهر من كونهما مثارا للعداوة والبغضاء (وهما مفسدتهما الاجتماعية) لأن كل سكرة من سكرات الخمر ، وكل مرة من لعب القمار تصد السكران واللاعب وتصرفه عن ذكر الله الذى هو روح الدين ، وعن الصلاة وهى عماد الدين إذ السكران لا عقل له يذكر به آلاء الله وآياته ويثنى عليه بأسمائه وصفاته ، أو يقيم الصلاة التى هى ذكر الله ، ولو ذكر السكران ربه وحاول الصلاة لم تصح له ، وكذلك المقامر تتوجه جميع قواه العقلية إلى اللعب الذى يرجو منه الربح ويخشى الخسارة فلا يتوجه همه إلى ذكر الله ولا يتذكر أوقات الصلاة وما يجب عليه من المحافظة عليها .

وقد دلت المشاهدة على أن القمار أكثر الأعمال التى تشغل القلب وتصرفه عن كل ما سواه بل يحدث الحريق فى دار المقامر أو تحل المصايب بالأهل والولد ويستغاث به فلا يغيث ، بل يمضى فى لعبه والنوادر فى ذلك كثيرة .

إلى أن المقامر إذا تذكر الصلاة وترك اللعب لأجلها فإنه لا يؤدى منها إلا الحركات بدون أدنى تدبر أو خشوع ، لكنه على كل حال يفضل السكران إذ أنه لا يكاد يضبط أفعال الصلاة .

واللعب بالشطرنج أو بالنرد إذا كان على مال دخل فى الميسر وكان حراما ، وإذا

لم يكن كذلك فلا وجه للقول بتحريمه إلا إذا تحقق كونه رجسا من عمل الشيطان موقعا فى العداوة والبغضاء صادّا عن ذكر الله وعن الصلاة ، بأن كان من المكثرين اللعب أو ممن يداومون عليه ، والشافعى كرهه لما فيه من إضاعة الوقت بلا فائدة .

ولما بين جل اسمه علة تحريم الميسر وحكمته أكد ذلك التحريم فقال :

(فهل أنتم منتهون) هذا أمر بالانتهاء جاء بأسلوب الاستفهام وكان ذلك غاية فى البلاغة فكأنه قيل قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع كل هذا منتهون ؟ أو أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا .

وقد أكد الله تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد :

(١) أنه سماها رجسا ، والرجس كلمة تدل على منتهى ما يكون من القبح والخبث ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم «الخمر أم الخبائث ».

(٢) أنه قرنها بالأنصاب والأزلام التى هى من أعمال الوثنية وخرافات الشرك ، وقد روى ابن ماجه عن أبى هريرة قوله صلى الله عليه وسلم «مدمن الخمر كعابد وثن»

(٣) أنه جعلهما من عمل الشيطان لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان وسخط الرحمن .

(٤) أنه جعل اجتنابهما سبيلا للفلاح والفوز بالنجاة .

(٥ ، ٦) أنه جعلهما مثارا للعداوة والبغضاء ، وهما من أقبح المفاسد الدنيوية التى تولد كثيرا من المعاصى فى الأموال والأعراض والأنفس .

(٧ ، ٨) أنهما جعلا صادين عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهما روح الدين وعماده وزاده وعتاده .

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى وأطيعوا الله تعالى فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرهما من سائر المحرمات كالأنصاب والأزلام ونحوهما وأطيعوا الرسول فيما يبنه لكم مما نزل عليكم من نحو قوله « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » .

(واحذروا) أى واحذروا ما يصيبكم إذا أنتم خالفتم أمرهما من فتنة فى الدنيا وعذاب فى الآخرة فإنه سبحانه لم يحرم عليكم إلا ما فيه ضرر لكم فى دنياكم وآخرتكم كما قال : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى فإن توليتم وأعرضتم فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج من عهدة التبليغ والإعذار والإنذار ، وما فوق ذلك من عقاب للمخالف فأمره إلى الله كما قال عز اسمه « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » .

وفى هذا تهديد كثير ووعيد شديد لمن خالف أوامر الله وفعل نواهيه .

(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) أى ليس على الذين آمنوا وعملوا صالح الأعمال من الأحياء والأموات إثم ومؤاخذة فيما أكلوا من الميسر أو شربوا من الخمر فيما مضى قبل تحريمهما وتحريم غيرهما مما لم يكن محرما ثم حرم ، إذا ما اتقوا الله وآمنوا بما كان قد نزل سبحانه من الأحكام وعملوا الصالحات التى كانت قد شرعت كالصلاة والصيام وغيرهما ثم اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك عند العلم به ، وآمنوا بما نزل فيه وفى غيره ، ثم استمروا على التقوى وأحسنوا صالح أعمالهم فأتوا بها على وجه الكمال وتمموا نقص فرائضها بنوافل الطاعات والله يحب المحسنين فلا يبقى فى قلوبهم أثرا من الآثار السيئة التى وصف بها الخمر والميسر من الإيقاع فى العداوة والصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

والخلاصة — إن من صح إيمانه وصلح عمله وعمل فى كل حين بنصوص الدين وما أداه إليه اجتهاده واستمر على ذلك حتى ارتقى إلى مقام الإحسان ، فلا يحول ما كان قد أكل أو شرب مما لم يكن محرما عليه على حسب اعتقاده ــ دون تزكية نفسه وتطهير قلبه .

روى أنه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر فنزلت الآية .

تتمة - اختلف العلماء فى التداوى بالخمر والنجاسات والسموم ، وأصح الآراء فى ذلك أنه يجوز لما فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم أذن للعرنيين بالتداوى بأبوال الإبل ، بشرط الاضطرار الذى يبيح المحرم من طعام وشراب بدليل قوله تعالى : « وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ » كمن غص بلقمة فكاد يختنق فلم يجد ما يسيغها به سوى الخمر ، وكمن أصابته نوبة ألم فى القلب كادت تقضى عليه وقد أخبره الطبيب بأن لا سبيل لدفع الخطر سوى شرب مقدار من الخمر من النوع المعروف (باسم كونياك) فقد يرى الطبيب أنه يتعين فى بعض الأحيان لعلاج ما يعرض من آلام القلب لدرء الخطر كما ثبت بالتجربة .

أما التداوى بالخمر لمن يظن نفعها ولو بإخبار الطبيب كتقوية المعدة أو الدم أو نحو ذلك مما تسمعه من كثير من الناس فذلك منهى عنه للحديث « إنه ليس بدواء ولكنه داء » رواه أحمد ومسلم وأبو داود ، وكان سببه أن طارق بن سويد الجعفى سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الخمر وكان يصنعها فنهاه عنها فقال : إنما أصنعها للدواء فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ذلك .

وقوله : (ولكنه داء) هذا هو رأى الأطباء ، إذ أن المادة المسكرة من الخمر سم تتولد منها أمراض كثيرة يموت بها فى كل عام عدد لا يحصى من الناس .

والذين يشربون الخمر ولو بقصد التداوى يؤثر سمها فى أعصابهم بكثرة التعاطى فتصير مطلوبة عندهم لذاتها فيضرهم سمها ، فعلى المسلم الصادق الإيمان ألا يغتر برأى بعض الأطباء الذين يصفونها للتداوى لمثل الأمراض التى يصفونها لها عادة .

وقد دلت التجارب على أن الذين يبتلون بشربها لا يقدمون على ذلك إلا بإغراء المعاشرين من الأهل والأصحاب ، على استبشاعهم لها واعتقادهم ضررها ومخالفتهم

أوامر دينهم ، لكن الذى يسهل عليهم ذلك ظنهم أن الضرر المتيقن إنما يكون بالإسراف والانهماك فى الشراب ، وأن القليل منها إن لم ينفع فلا يضر ، فلا ينبغى تركه مع مافيه من لذة النشوة والذهول عن هموم الدنيا وآلامها .

إلى مافى ذلك من مجاملة الإخوان ، لكنهم مخدوعون؛ إذ هم لو سألوا من سبقهم إلى هذه البلوى وأسرف فى السكر حتى فسدت صحته ومروءته وضاعت ثروته ، هل كنت حين بدأت تنوى الإسراف والإدمان ؟ لأجابك بأنه ما كان يقصد إلا النذر القليل فى فترات متطاولة من الزمن ، وما كان يعلم أن القليل يجر إلى الكثير الذى يصيبه بالداء الدوى ولا يجد إلى الخلاص منه سبيلا .

وقد يعرض لبعض من يؤمن بحرمة الخمر شبهات فيقول إن الخمر المتخذة من العنب هى المحرمة لذاتها وأن ما عداها لا يحرم منه إلا المقدار المسكر فعلا ، لكنهم واهمون فيما فهموا ، إذ جاء فى الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » .

وآخر تعلة لهم الغرور بكرم الله وعفوه أو اعتمادهم على بعض الأعمال الصالحة - ولا سيما ما يسمونه بالمكفرات - أو على الشفاعات .

وهذا الجهل والغرور يصبح عقيدة فى نفوسهم بما يسمعونه من كلام فساق الشعراء المدمنين كأبى نواس وأضرابه كقوله :

تكثر ما استطعت من المعاصى فإنك واجد ربا غفورا

وقوله : ورجوت عفو الله معتمدا على خير الأنام محمد المبعوث

ولو صح أمثال هذا الهذيان لكان الدين لغوا وعبثا، ولكان المسلم يضرب بأوامر دينه عُرض الحائط انتظارا لشفاعة ترجى أو عفو ربما أتيح له من فضل ربه ، وكان التقى والفاجر سواء ؛ وقد ثبت فى صحيح الأحاديث «أنه كان يؤتى بالشارب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيضرب بالأيدى والجريد وبالثياب والنعال » وفى حديث أنس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم أُتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين »

قال وفعله أبو بكر ، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر ، وفى الصحيحين عن على كرم الله وجهه : ما كنت لأقيم على أحد حدا فيموت وأجد فى نفسى شيئا إلا صاحب الخمر فإنه لو مات وديته (أى دفعت ديته) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنه ، وفى صحيح مسلم « أن عثمان أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين ، وقال أزيدكم وشهد عليه الشهود أنه شرب الخمر ، فأمر بجلده وعلى كرم الله وجهه يعدّ حتى بلغ الأربعين فقال أمسك ، ثم قال جلد النبي وأبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكل سنة، وهذا أحب إلىّ (يريد الأربعين) » وقوله كل سنة أى أنه جرى العمل به فعلا ، ولا يعارض ذلك قوله إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسن حد الخمر، لأن ضربه أربعين مرة واحدة لا يعد سنة محددة له لأنه قد خالف ذلك فى بعض الأحيان ، لكنه صار سنة بجرى أبى بكر عليه .

والخلاصة — إن العقاب المشروع على شرب الخمر هو الضرب الذى يراد منه إهانة الشارب وزجره وتنفير الناس منه، وإن الضرب أربعين أو ثمانين كان اجتهادا من الخلفاء ، فاختار أبو بكر الأربعين وعمر الثمانين بموافقته لاجتهاد عبد الرحمن بن عوف بتشبيهه بحد قذف المحصنات ، وقد روى الدارقطنى عن على كرم الله وجهه قال: إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى، وعلى المفترى ثمانون جلدة .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ

مِنْهُ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

شرح المفردات

الابتلاء : الاختبار ، والصيد : ما صيد من حيوان البحر ومن حيوان البر الوحشية للأكل، وقوله تناله أيديكم ورماحكم : يراد به كثرته وسهولة أخذه ، وروى عن ابن عباس أن مايؤخذ بالأيدى صغاره وفراخه ومايؤخذ بالرماح كباره ، ليعلم الله أى ليعاملكم معاملة المختبر الذى يريد أن يعلم الشيء وإن كان علام الغيوب ، والحرم: واحده حرام للذكر والأنثى، تقول هو رجل حرام وامرأة حرام أى محرمة بحج أو عمرة ، والنعم والأنعام : من الإبل والبقر والضأن ، والعدل (بالفتح) المعادل للشيء والمساوى له مما يدرك بالعقل (وبالكسر) المساوى له مما يدرك بالحس ، والوبال من الوبل والوابل: وهو المطر الثقيل، وطعام وبيل ثقيل ، ويقال للأمر الذى يخاف ضرره هو وبال ، والبحر : المراد به الماء الكثير الذى يوجد فيه السمك كالأنهار والآبار والبرك ونحوها ، وصيد البحر : ما يصاد منه مما يعيش فيه عادة ، وطعامه ماقذف به إلى ساحله ، والسيارة : جماعة المسافرين يتزودون منه ، وتحشرون :تجمعون وتساقون إليه .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن تحريم ماأحل من الطيبات ثم استثنى الخمر والميسر — استثنى هنا مما لا يحل الصيد فى حال الإحرام وأوجب جزاء على قتله ، وبين أن صيد البحر وطعامه حلال، وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية حيث ابتلاهم الله بالصيد

وهم محرمون وكثر عندهم حتى كان يغشاهم فى رحالهم فيتمكنون من صيده أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ليختبرنكم الله بإرسال كثير من الصيد يسهل عليكم أخذ بعضه بأيديكم وبعضه برماحكم .

ووجه الابتلاء فى ذلك أن الصيد طعام لذيذ تشتد الحاجة إليه فى الأسفار الطويلة كالسفر إلى الجهات النائية ، إلى أن سهولة تناوله تغرى به ، إذ ترك ما لاينال إلا بمشقة لا يدل على التقوى والخوف من الله كما يدل عليه ترك ما ينال بسهولة .

(ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى يبتليكم الله حال إحرامكم ليعلم من يخافه غائبا عن نظر الناس غير مراء ولا خائف من إنكارهم ، فيترك أخذ شىء من الصيد ويختار شظف العيش على لذة اللحم خوفا من الله تعالى وطاعة له فى خفيته .

والخلاصة — إنه تعالى يريد أن يعاملكم معاملة المختبر الذى يريد أن يعلم الشىء وإن كان هو عالما به تربية لكم وتزكية لنفوسكم وتطهيرا لها .

(فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أى فمن اعتدى بأخذ شىء من ذلك الصيد بعد ذلك البيان الذى أخبركم الله تعالى به قبل حصوله ، فله عذاب شديد فى الآخرة ، إذ هو لم يبال باختبار الله له ، بل انتهك حرمة نواهيه ، وأبان أنه لايخافه بالغيب ، بل يخاف لوم المؤمنين وتعذيرهم إذا هو أخذ شيئا من الصيد بمرأى منهم ومسمع كما هو دأب المنافقين الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

(يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تقتلوا الصيد الذى بينه لكم وهو صيد البر دون صيد البحر وأنتم محرمون بحج أو عمرة .

(ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم) أى ومن قتل شيئا من الصيد وهو محرم قاصدا قتله فعليه جزاء من الأنعام مماثل لما قتله فى هيئته وصورته إن وجد ، فقد روى الدارقطنى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فى الضبع إذا أصابه المحرم كبش ، وفى الظبى شاة ، وفى الأرنب عناق » . (الأنثى من ولد المعز قبل أن تبلغ سنة) « وفى اليربوع جفرة » (الأنثى من ولد الضأن التى بلغت أربعة أشهر) وأخرج ابن أبى شيبة عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الضبع صيد فإذا أصابه المحرم ففيه جزاء كبش مسنّ وتؤكل » .

وإن لم يوجد المماثل من النعم فقيمته حيث صيد أو فى أقرب الأماكن إليه .

وقتل المحرم بحج أو عمرة للصيد حرام بالإجماع لنفس الآية ، وأكل المحرم ماصاده من ليس بمحرم جائز ، لما روى: أن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلوا مما أهدى إليهم من لحم الحمار الوحشى .

والصيد الذى نهت عنه الآية هو كل حيوان وحشى يؤكل لحمه ، فلا جزاء فى قتل الأهلى ولا مالا يؤكل لحمه من السباع والحشرات ومنها الفواسق الخمس التى ورد الإذن بقتلها وهى الغراب والحدَأة والعقرب والفأرة والكلب العقور ، وألحق مالك بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد لأنها أشد منه ضررا .

(يحكم به ذوا عدل منكم) أى يحكم بالجزاء من النعم وكونه مثل المقتول من الصيد رجلان من أهل العدالة والمعرفة من المؤمنين .

ووجه الحاجة إلى حكم العدلين أن المماثلة بين النعم والصيد مما يخفى على أكثر الناس ، وما لا مثل له بوجه من الوجوه يحكمان فيه بالقيمة .

(هديا بالغ الكعبة) أى إن ذلك الجزاء يكون هديا يصل إلى الكعبة ويذبح فى جوارها حيث تؤدى المناسك ويفرق لحمه على مساكين الحرم :

(أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) أى فعلى من قتل الصيد وهو محرم متعمدا جزاء من النعم مماثل له ، أو كفارة طعام مساكين ، أو ما يعادل

ذلك الطعام من الصيام ، روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : إذا قتل المحرم شيئا من الصيد فعليه فيه الجزاء ، فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه ذبح شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل أيّلا (من بقر الوحش) فعليه بقرة ، فإن لم يجدها صام عشرين يوما ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحو ذلك فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينا ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوما والطعام مُدٌّ مُدٌّ يشبعهم .

(ليذوق وبال أمره) أى أوجبنا ما أوجبنا من الحق أو الكفارة كى يذوق وبال أمره ، أى سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام أى فألزمناه الكفارة التى ألزمناه إياها ليكون ذلك عقوبة له إما بدفع الغرم وإما بالعمل ببدنه بما يتعبه ويشق عليه .

(عفا الله عما سلف) لكم من الصيد فى حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسألوه عن جوازه .

(ومن عاد فينتقم الله منه) أى ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم بعد ورود النهى فإن الله ينتقم ممن أصر على الذنب ، فهو ينكل به ويبالغ فى عقوبته وله العزة والمنعة .

(والله عزيز ذو انتقام) أى والله غالب على أمره فلا يغلبه العاصى ، ذو انتقام ومبالغة فى العقوبة ممن أصر على الذنب .

والآية صريحة فى أن الجزاء الدنيوى إنما يمنع عقاب الآخرة إذا لم يتكرر الذنب، فإن تكرر استحق صاحبه الجزاء فى الدنيا والعقاب فى الآخرة .

(أحل لكم صيد البحر وطعامه) أى وأحل لكم ما صيد من البحر ثم مات وما قذفه البحر ميتا ، وروى هذا عن ابن عباس وابن عمر وقتادة .

والخلاصة — إن المراد بطعامه عندهم مالا عمل للانسان فيه ولا كلفة فى اصطياده كالذى يطفو على وجهه والذى يقذف به إلى الساحل والذى ينحسر عنه الماء وقت الجزر ، ولا فرق بين حيه وميته .

(متاعا لكم وللسيارة) أى منفعة لمن كان منكم مقيما فى بلده يستمتع بأكله

وينتفع به ، ومتعة للسائرين والمسافرين من أرض إلى أرض يتزودونه فى سفرهم مليحا (سردين وفسيخ) .

(وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما) أى وحرم عليكم ما صدتم فى البر وأنتم محرمون ، لا ما صاده غيركم ولا ما صدتموه قبل إحرامكم :

(واتقوا الله الذى إليه تحشرون) أى واخشوا الله واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه ، وفيما نهاكم عنه من جميع ما تقدم من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وإصابة صيد البر وقتله فى حال إحرامكم وفى نحو ذلك ، فإن إليه مصيركم ومرجعكم فيعاقبكم بمعصيتكم ويثيبكم على طاعتكم .

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)

شرح المفردات

الكعبة فى اللغة : البيت المكعب أى المربع ، والقيام : ما يقوم به أمر الناس ويصلح ، والشهر الحرام : ذو الحجة ، والهدى : مايهدى إلى الحرم من الأنعام توسعة على فقرائه ، والقلائد أى ذوات القلائد من الهدى ، وهى الأنعام التى كانوا يقلدونها إذا ساقوها هديا ، وخصها بالذكر لعظم شأنها .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فى الآية السالفة المحرم عن الاصطياد ــ بين هنا أن البيت الحرام كما أنه سبب لأمن الوحش والطير هو سبب لأمن الناس من الآفات والمخاوف ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد) أى إن الله تعالى جعل الكعبة التى هى البيت الحرام قياما لمن يقيمون بجوارها ولمن يحجون إليها - ذلك بأن مكة بلد لا ضرع فيه ولا زرع ، وقلما يوجد فيه ما يحتاج إليه أهله ، فجعل الله الكعبة معظمة فى القلوب يرغب الناس جميعا فى زيارتها والسفر إليها من كل فج ، وصار ذلك سببا فى إسباغ النعم على أهلها إجابة لدعاء إبراهيم صلوات الله عليه كما حكاه الله عنه بقوله : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

إلى أنها كانت قواما للناس فى دينهم بما جعل فيها من المناسك العظيمة والطاعات التى هى من أسباب حط خطيئاتهم ورفع درجاتهم .

إلى أن أهلها صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته والسادة المعظمين إلى يوم القيامة ، كما صاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، فقد كان العرب يتقاتلون ويغير بعضهم على بعض إلا فى الحرم حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم لم يتعرض له ، ولو جنى أعظم الجنايات لم يتعرض له كما قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

وكذلك جعل الشهر الحرام سببا لقيام الناس ، لأن العرب كان يقتل بعضهم بعضا ، ويغير بعضهم على بعض فى سائر الأشهر حتى إذا دخل الشهر الحرام زال الخوف وقدروا على الأسفار والتجارات وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وكانوا يحصلون فيه من الأقوات ما يكفيهم طول العام ، ولولاه لتفانوا من الجوع والشدة .

وكذلك جعل الهدى سببا لقيام الناس ، لأنه يهدى إلى البيت ويذبح ويفرق لحمه على الفقراء فيكون نسكا للمهدى وقواما لمعيشة الفقراء .

وكذلك جعل القلائد قياما للناس ، إذ أن من قصد البيت فى الشهر الحرام لم يتعرض له أحد ، ومن قصده فى غير الشهر الحرام ومعه هدى وقلده وقلد نفسه من لحاء شجر الحرم لم يتعرض له أحد ، لأن الله أوقع فى قلوبهم تعظيم البيت ، فكل من قصده أو تقرب إليه صار آمنا من جميع الآفات والمخاوف .

(ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض وأن الله بكل شىء عليم) أى ذلك التدبير اللطيف لأجل أن تتفكروا فى أنه تعالى يعلم مافى العالم العلوى والسفلى ، وأن علمه محيط بكل شىء .

والخلاصة — إن ذلك لم يكن إلا لحكمة بالغة صادرة عن علم بخفايا الأمور وغاياتها ، فكان دليلا على أنه سبحانه يعلم مافى السموات ومافى الأرض من أسباب الرزق ونظام الخلق وغير ذلك ، وأنه عليم بكل شىء فلا تخفى عليه خافية .

وقد عجزت جميع الأمم فى القديم والحديث عن تأمين الناس فى قطر من الأقطار فى زمن معين من كل سنة بحيث لا يقع فيها قتل ولا قتال ولا عدوان .

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

المعنى الجملى

بعد أن أرشدنا فى الآية السابقة إلى بعض آيات علمه فى خلقه التى بها جعل البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد — نبهنا فى هذه إلى أن العليم بكل شىء لا يمكن أن يترك الناس سدى ، فهو لم يخلقهم عبثا ، ومن ثم لا يليق

بحكمته وعدله أن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا أن يسوى بين الطيب والخبيث فيجعل البر كالفاجر والمصلح كالمفسد ، بل لابد من الجزاء بالحق ، لذلك جاءت هذه الآيات ترغيبا لعباده وترهيبا لهم ووعدا ووعيدا .

الإيضاح

(اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) أى اعلموا أن ربكم الذى لا يخفى عليه شىء من سرائر أعمالكم وعلانيتها وهو محصيها عليكم، شديد العقاب لمن دسَّى نفسه بالشرك والفسوق والعصيان ، وغفار لذنوب من أطاعه وأناب إليه ، رحيم به فلا يؤاخذه بما فرط منه قبل الإيمان ، ولا بما يعمله من السوء بجهالة إذا بادر إلى التوبة وأصلح عمله ، بل يستر ذنبه و يمحوه فلا يبقى له أثر مع إيمانه وعمله الصالح كما يستر الماء القذر القليل بما يغمره من الماء النقى الكثير .

وفى تقديم العقاب على المغفرة والرحمة إيماء إلى أن العقاب قد ينتهى بالمغفرة والرحمة ، لأن رحمته تعالى سبقت غضبه كما ورد فى صحيح الحديث ، ومن ثم يغفر كثيرا لمن ظلم نفسه ، قال تعالى : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

و بعد أن أبان سبحانه أن الجزاء بيد الله العليم بكل شىء، ذكر وظيفة الرسول فقال:

(ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) أى ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم بالإنذار بالعقاب بين يدى عذاب شديد، والإعذار إليكم بما يقطع حججكم — إلا أن يؤدى الرسالة ثم إلينا الثواب على الطاعة وعلينا العقاب على المعصية ، ولا يخفى علينا المطيع لأوامرنا والعاصى التارك العمل بها إذ لا يغيب عنا شىء من ضمائر الصدور وظواهر أعمال النفوس ، فخليق بكم أن تتقونى ولا تعصوا أمرى .

وفى هذا وعيد شديد وتهديد لمن يخالف أوامر الله و يعصيه ، كما أن فيه إبطالا

لما عليه أهل الشرك والضلال من الخوف من معبوداتهم الباطلة والتماس الخلاص والنجاة من العذاب بشفاعتها .

والخلاصة — إن الرسول ليس عليه إلا البلاغ لدين الله وشرعه ، وبعدئذ يكون المبلغون هم المسئولين عند الله ، والله الذى يعلم ما يبدون وما يكتمون من العقائد والأقوال والأفعال ، وهو الذى يجازيهم على حسب علمه المحيط بكل ذرة فى الأرض والسموات ، ويكون جزاؤه حقا وعدلا ويزيد بعد ذلك من إحسانه عليه وفضله ، فاطلبوا سعادتكم من أنفسكم وخافوا منها عليها .

وما ورد من الشفاعة فى الآخرة فهو دعاء من النبى صلى الله عليه وسلم يستجيبه الله فيظهر عقبه ما سبق به علمه واقتضته حكمته على حسب ما جاء فى كتابه ، دون أن يكون مؤثرا فى علم الله ولا فى إرادته ، فالحادث لا يؤثر فى القديم .

وبعد أن بين سبحانه أن الجزاء منوط بالأعمال أراد أن يبين ما يتعلق به الجزاء من صفات الأعمال والعاملين لها وأرشد إلى أن هناك حقيقتين مختلفتين يترتب على كل منهما ما يليق بها من الجزاء فقال

(قل لا يستوى الخبيث والطيب) أى قل أيها الرسول مخاطبا أمتك : لايستوى الردىء والجيد من الأشياء والأعمال والأموال ، فلا يتساوى الضار والنافع ولا الفاسد والصالح ، ولا الحرام والحلال ، ولا الظالم والعادل فلكل منها حكم يليق به عند الله الذى يضع كل شىء فى موضعه على حسب علمه .

(ولو أعجبك كثرة الخبيث) أى ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث من الناس وجاههم ، أو من الأموال المحرمة لسهولة تناولها والتوسع فى التمتع بها كأكل الربا والرشوة والخيانة .

والخلاصة — أنهما لايستويان لا فى أنفسهما ولا عند الله ، ولو فرض أن كثرة الخبيث أعجبتك وغرتك ، فصرت بعيدا عن إدراك تلك الحقيقة — وهى أن القليل

من الحلال خير من كثير الحرام حسن عاقبة فى الدنيا والآخرة ؛ ألا ترى أن القليل الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الردىء الذى لا يغنى غناءه ولا يفيد فائدته بل ربما يضر ويؤذى صاحبه .

فكذلك الحال بالنسبة إلى الناس ، فالقليل الطيب منهم خير من الكثير الخبيث ، فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثيرة من الجبناء المتخاذلين ، وجماعة قليلة من ذوى البصيرة والرأى تأتى من الأعمال ما يعجز عنه الكثير من أهل الحمق والبلاهة ، فالعبرة بالصفة لا بالعدد ، والكثرة لا تكون خيرا إلا بعد التساوى فى الصفات الفاضلة .

(فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون) أى فاتقوا الله يا أرباب العقول الراجحة ، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان ، فتغتروا بكثرة المال الخبيث وكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين ، فتقوى الله هى التى تجعلكم من الطيبين وبها يرجى أن تكونوا من المفلحين الفائزين بخيرى الدنيا والآخرة ، وخص أولى الألباب بالاعتبار لأنهم هم أهل الروية والبصر بعواقب الأمور التى ترشد إليها مقدماتها بعد التأمل فى حقيقتها وصفاتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكر فلا يعتبرون بما يرون بأعينهم ولا بما يسمعون بآذانهم ، كما يشاهد ويرى من حال كثير من الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة التى جمعت من الحرام ، وحال الدول التى ذهب ريحها بخلوّها من فضيلتى العلم والخلق ، وورثها من كانوا أقل منهم رجالا مالا إذ كانوا أفضل منهم أخلاقا وأعمالا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وظيفة الرسول وأنها تبليغ الرسالة وبيان شرع الله ودينه فحسب ، وبذا تبرأ ذمته — ناسب أن يصرح بأن الرسول قد أدى وظيفة البلاغ الذى كمل به الإسلام وأنه لا ينبغى للمؤمنين أن يكثروا عليه من السؤال لئلا يكون ذلك سببا لكثرة التكاليف التى يشق على الأمة احتمالها ، فيسرع إليها الفسوق عن أمر ربها .

روى أن هذه الآية نزلت من جرّاء أن قوما كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم امتحانا له أحيانا واستهزاء أحيانا أخرى ، فيقول له بعضهم من أبى ؟ ويقول بعضهم إذا ضلت ناقته أين ناقتى ؟ ونحو ذلك .

روى أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وغيرهم عن أنس ابن مالك قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها وقال فيها : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، قال فغطى أصحاب رسول الله وجوههم ، لهم حنين وبكاء مرتفع من الصدر ، فقال رجل من أبى ؟ قال فلان فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء) » وروى ابن جرير عن قتادة فى قوله : (يأيها الذين آمنوا) الآية ، قال: فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم، فصعد المنبر فقال : (لاتسألونى اليوم عن شىء إلا بينته لكم) فأشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بين يدى أمر قد حضر ، فجعلت لا ألتفت لا يمينا ولا شمالا إلا وجدت كل رجل لافًّا رأسه فى ثوبه يبكى ، فأنشأ رجل كان يلاحَى فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يانبى الله من أبى ؟ قال : (أبوك حذافة) قال ثم قام عمر فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ، أعوذ بالله من شر الفتن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أر فى الخير والشر كاليوم قط ، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط» .

قال الزهرى : فقالت أم عبد الله بن حذافة : ما رأيت ولدا أعق منك ، أكنت تأمن أن أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس ؟ فقال والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ، ثم قال : ذرونى ما تركتم ، فنزلت (يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) ».

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تسألوا عن أشياء من أمور الدين ودقائق التكاليف ، أو من الأمور الغيبية أو الأسرار الخفية أو غير ذلك مما يحتمل أن يكون إظهارها سببا للمساءة ، إما بشدة التكاليف وكثرتها ، وإما بظهور حقائق تفضح أهلها .

(وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء التى من شأنها أن يكون إبداؤها مما يسوءكم حين ينزل القرآن فى شأنها أو حكمها لأجل فهم ما نزل إليكم ، فإن الله يبديه لكم على لسان رسوله .

قال الحافظ ابن كثير أى لا تستأنفوا السؤال عنها ، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق ، وقد ورد فى الحديث : « أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يُحرَّم فحرم من أجل مسألته » ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها .

وخلاصة ذلك — تحريم السؤال عن الأشياء التى من شأن إبدائها أن يسوء السائلين إلا فى حال واحدة وهى أن يكون قد نزل فى شأنها شىء من القرآن فيه

إجمال وأردتم السؤال عن بيانه ليظهر لكم ظهورا لا مراء فيه كما وقع فى مسألة تحريم الخمر بعد نزول آية البقرة .

(عفا الله عنها والله غفور حليم) أى إن هذه الأشياء مما نهيتم عن السؤال عنها لأنها مما عفا الله عنها بسكوته فى كتابه وعدم تكليفكم إياها فاسكتوا عنها أيضا ، ومما يؤيد هذا حديث أبى ثعلبة الخشنى قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

وقد يكون المعنى — عفا الله عما كان من مسألتكم قبل النهى فلا يعاقبكم عليها لسعة مغفرته وحلمه ، فيكون هذا كقوله فى الآية الأخرى « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ » وقوله : « إِلاَّ مَا سَلَفَ » .

(قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) أى قد سأل هذه المسائل (أى أمثالها) قوم من قبلكم ثم أصبحوا بعد إبدائها كافرين بها ، فإن من أكثر الأسئلة عن الأحكام الشرعية من الأمم السالفة لم يعملوا بما بين لهم منها ، بل فسقوا عن أمر ربهم وألقوا شرعهم وراءهم ظهريا استثقالا للعمل به ، وأدى ذلك إما إلى استنكاره ، وإما إلى جحود كونه من عند الله ، وسواء أكان هذا أم ذاك فهو كفران به ، انظر إلى قوم صالح فإنهم بعد أن سألوا الآيات وأجيبوا إلى ما طلبوا لم يؤمنوا بما أوتوا بل كفروا فاستحقوا الهلاك فى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

مَاجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ؟ (١٠٤)

شرح المفردات

البحيرة — الناقة التى يبحرون أذنها أى يشقونها شقا واسعاً ، وكانوا يفعلون بها ذلك إذا نُتِجَت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى كما روى عن ابن عباس .

والسائبة — الناقة التى تسيّب بنـذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها شىء ، ولا يجز صوفها ولا يحلب لبنها إلا لضيف .

والوصيلة — الشاة التى تصل أخاها فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكرا كان لآلهتهم ، وإذا ولدت أنثى كانت لهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

والحامى — الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن ، فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

المعنى الجملى

بعد أن نهى فى الآية السابقة عن تحريم ما أحل الله بالنذر أو بالحلف باسم الله تنسكا وتعبدا مع اعتقاد إباحته فى نفسه ، وعن الاعتداء فيه ، ونهى أن يكون المؤمن سببا لتحريم شىء لم يكن الله قد حرمه أو شرع حكم لم يكن الله قد شرعه ، بأن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شىء مما سكت الله عنه عفوا وفضلا .

ناسب بعد هذا أن يبين ضلال أهل الجاهلية فيما حرموه على أنفسهم وما شرعوه لها بغير إذن من ربهم وما قلد فيه بعضهم بعضا على جهلهم ، كما بين بطلان التقليد ومنافاته للعلم والدين .

الإيضاح

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) أى ما بحر الله بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حاميا أى ما شرع ذلك ولا أمر به وما جعله دينا لهم ، وهذا رد و إبطال لما كان يفعله أهل الجاهلية فى جاهليتهم .

(ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) إذ يفعلون ما يفعلون و يزعمون أن الله يأمرهم بهذا ، وأول من سنّ لأهل الشرك تلك السنن الرديئة وغير دين الله دين الحق وأضاف إليه أنه هو الذى حرم ما حرموا وأحل ما أحلوا افتراء على الله الكذب واختلاقا عليه — هو عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعى ، فهو الذى غير دين إبراهيم و بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى .

أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكتم بن الجون « يا أكتم عُرِضتْ علىّ النار ، فرأيت فيها عمرو بن لحىّ ابن قمعة بن خِنْدِف يجر قُصْبه (القصب المعى وجمعه الأقصاب) فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك ، فقال أكتم أخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إسماعيل و بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى » .

(وأكثرهم لا يعقلون) أنهم يفترون على الله الكذب بتحريم ما حرموا على أنفسهم ، وأن ذلك من أعمال الكفر ، بل يظنون أنهم يتقربون به إليه ولو بالوساطة لأن آلهتهم التى يسيبون باسمها السوائب و يتركون لها ما حرموه على أنفسهم ، ليست إلا وسطاء بينهم و بين الله بزعمهم ، تشفع لهم عنده وتقربهم إليه زلفى .

والعبرة من هذا أن كل مبتدع فى الدين بتحريم طعام أو غيره ، وتسييب عجل للسيد البدوى أو سواه ، وسن ورد أو حزب يضاهى به المشروع من شعائر الدين ، أو نحو ذلك من العبادات التى لم تؤثر من الشارع ، زاعما أنه جاء بما يتقرب به لله تعالى

ويـنال به رضاه ، فقد ضاهى بعمله عمل عمرو بن لحىّ ، لأن الله لايعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فلا عبادة ولا تحريم إلا بنص ، وليس لأحد أن يزيد أو ينقص برأى ولا قياس .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) أى وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله فى القرآن من الأحكام المؤيدة بالحجج والبراهين ، وإلى الرسول المبلغ لها والمبين لمجملها فاتبعوه فيها ، أجابوا من يدعونهم إلى ذلك حسبنا ماوجدنا آباءنا يعملون به ، ونحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة فرد الله عليهم قولهم :

(أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟) أى أيكفيهم ذلك ولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا من الشرائع ولا يهتدون سبيلا إلى المصالح ، سواء أكانت دينية أم دنيوية ، ولايُعرف ما يكفى الأفراد والأمم إلابالعلم الصحيح الذى يميز به بين الحق والباطل، فأولئك قوم أميون يتخبطون فى ظلمات من الوثنية وخرافات من معتقدات الجاهلية ، فمن وأد للبنات إلى سلب ونهب وإغارات من بعضهم على بعض ، ومن قتال تُشْتَجَرَ فيه الرماح ، إلى عداوة و بغضاء تملأ السهول والبطاح ، ومن ظلم لليتامى والنساء إلى تفنن فى الشعوذة وضروب السحر والكهانة ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

المعنى الجملى

بعد أن نعى سبحانه على المشركين ما هم عليه من جهل وعناد ، وطغيان وفساد ، وأنهم لم ينتفعوا بإعذار ولا إنذار ، بل بقوا مصرين على جهلهم سادرين فى ضلالهم .

أمر المؤمنين بأن يهتموا بإصلاح أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح ، وأبان لهم أنهم إذا أصلحوا أنفسهم وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم وعمل وتعليم وإرشاد فلا يضيرهم بعد ذلك ضلال من ضل وحاد عن الصراط السوى ، وسار سادرا فى غلواء الجهل والتقليد وتنكب عن جادة الحق .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) أى احفظوا أنفسكم من المعاصى وانظروا فيما يقربها من ربها ويخلصها من عقابه ، ولا يضركم ضلال غيركم إذا أنتم اهتديتم « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

(إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون) أى إليه وحده رجوعكم ورجوع من ضل عما اهتديتم إليه فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون فى الدنيا ويجزيكم به .

روى ابن كثير أن أبا بكر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هـذه الآية (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وروى الترمذى عن أبى أمية الشيبانى قال : « أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت ما تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية ؟ قلت قول الله تعالى (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم » .

وروى ابن جرير عن ابن عقال قال : قيل لابن عمر لو جلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه ، فإن الله قال (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال ابن عمر: إنها ليست لى ولا لأصحابى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ألا ليبلغ الشاهد الغائب » فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم .

والخلاصة — إن الرواة من السلف متفقون على أن المؤمن لا يكون مهتديا إذا أصلح نفسه ولم يهتم بإصلاح غيره بأن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وأن ذلك فرض لا هوادة فيه .

ولكن هذه الفريضة تسقط إذا فسد الناس فسادا لا يرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد ، أو فسادا يؤدى إلى إيذاء الواعظ المرشد ، بأن يعلم أو يظن ظنا قويا بأن لا فائدة من نصحه ، أو بأنه سيؤذى إذا هو أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، ويحرم عليه ذلك إذا أدى إلى الوقوع فى التهلكة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ، أَوْ يَخَافُوا أَنْ

تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

شرح المفردات

الشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة ، وضربتم فى الأرض: سافرتم، وتحبسونهما: تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق والهرب ، وارتبتم: شككتم فى صدقهما فيما يقران به ، ومن الآثمين: العاصين ، وعثر من العثور على الشىء : وهو الاطلاع عليه من غير سبق طلب له ، وأعثره عليه : وقفه عليه وأعلمه به من حيث لم يكن يتوقع ذلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن المرجع إليه بعد الموت ، وأنه لابد من الحساب والجزاء يوم القيامة — أرشدنا إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت وأنه تجب العناية بالإشهاد عليها حتى لاتضيع على مستحقيها .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: « كان تميم الدارى وعدى بن بَدَّاء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة فى الجاهلية ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم حوّلا متجرهما إلى المدينة ، فخرج بُدَيْل مولى عمرو بن العاص تاجرا حتى قدم المدينة ، فخرجوا جميعا تجارا إلى الشام حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل ، فكتب وصية بيده ثم دسها فى متاعه وأوصى إليهما ، فلما مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئا ثم حجراه كما كان ، وقدما المدينة على أهله فدفعا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به ، وفقدوا شيئا فسألوهما عنه فقالوا هذا الذى قبضنا له ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا ما كتمنا له شيئا ، فترافعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا

حضر أحدكم الموت - إلى قوله إنا إذا لمن الآثمين) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوهما فى دبر صلاة العصر بالله الذى لا إله إلا هو ما قبضنا غير هـذا ولا كتمنا ، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموه بالذهب فقال أهله هـذا من متاعه ، قالا نعم ولـكنا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فـكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (فإن عثر على أنهما استحقا إثما) فأمر النبى صلى الله عليه وسلم رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه » .

ثم إن تميما الدارى أسلم وبايع النبى صلى الله عليه وسلم وكان يقول صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء ، ثم قال يا رسول الله إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها فهب لى قرية عينون من بيت لحم وهى القرية التى ولد فيها عيسى ، فـكتب له بها كتابا ، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر أنا حاضر ذلك فدفعها إليه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) أى الشهادة المشروعة بينكم فى ذلك هى شهادة اثنين من رجالـكم من ذوى العدل والاستقامة يُشهدهما الموصى على وصيته ، فيشهدان بذلك عند الحاجة وقوله منكم أى من المؤمنين .

(أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت) أى أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين ونزلت بكم مقدمات الموت وعلاماته وأردتم الإيصاء ، ولا يخفى ما فى الآية من تأكيد الوصية والإشهاد عليها .

(تحبسونهما من بعد الصلاة) المراد بالصلاة صلاة العصر، لأن النبى صلى الله عليه وسلم حلّف عديا وتميما بعدها ، ولأن العمل قد جرى عليه فكان التحليف فيه

هو المعروف ، ولأنه هو الوقت الذى يقعد فيه الحكام للفصل فى المظالم والدعاوى ، إذ يكون الناس قد فرغوا من معظم أعمال النهار ، وروى عن ابن عباس أن الشهيدين إذا كانا غير مسلمين ، فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينهما .

(فيقسمان بالله إن ارتبتم) أى وتستقسمون الشاهدين وتطلبون حلفهما على الوصية ، إن شككتم فى صدقهما فيقسمان ، أما الأمين فيصدق بلا يمين .

(لانشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى) أى يقسمان بقولهما لانشترى بيمين الله ثمنا ولو كان المقسم له من أقاربنا : أى لا نجعل يمين الله كالسلعة التى تبذل لأجل ثمن ينتفع به فى الدنيا ، ونحو الآية قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » .

والخلاصة — أن يقول الحالف : إنه يشهد لله بالقسط ولايصده عن ذلك ثمن يبتغيه لنفسه ولا مراعاة قريب له إن فرض أن فى إقراره وقسمه نفعا له — أى ولو اجتمعت هاتان الفائدتان .

(ولا نكتم شهادة الله) أى ويقولان فى يمينهما أيضا : ولا نكتم الشهادة التى أوجبها الله وأمر أن تقام له كما قال : « وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » .

(إنا إذا لمن الآثمين) أى إنا إذا فعلنا ذلك واشترينا بالقسم ثمنا أو راعينا به قريبا بأن كذبنا فيه لمنفعة لأنفسنا أو لذوى قرابتنا ، أو كتمنا شهادة الله كلا أو بعضا لكنا من المتحملين للإثم المستحقين للجزاء عليه .

(فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان) أى فإن اتفق وحصل الاطلاع على أن الشهيدين الحالفين استحقا إثما بكذب فى الشهادة أو بالخيانة وبكتمان شىء من التركة فى حال ائتمانهما عليها أو كتمان فى الشهادة — فالواجب حينئذ أن ترد اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان

آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين له ، وهذان الرجلان الوارثان ينبغى أن يكونا هما الأوليين بالميت أى الأقر بين الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع .

وعلى هذا فالأوليان فاعل استحق ومفعوله محذوف يقدر بنحو قولنا ما أوصى به أو ما تركه أى من الورثة الذين استحق الأوليان من بينهم ما أوصى به .

(فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا) المراد بالشهادة اليمين كما فى قوله تعالى : « فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ » أى فيحلفان بالله لأيماننا على خيانة الشهيدين اللذين حلفا على وصية ميتهما أحق وأصدق من أيمانهما ، وأنهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة .

(إنا إذاً لمن الظالمين) أى ويقولان فى يمينهما إنا إذا اعتدينا الحق فحلفنا مبطلين كاذبين — لنكونن من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه .

ثم بين سبحانه الحكمة فى شرع هذه الشهادة وهذه الأيمان فقال :

(ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أى ذلك الذى شرعناه من تكليف المؤتمن على الوصية أن يقوم على مرأى من الناس ويشهد بعد الصلاة ويقسم الأيمان المغلظة، أدنى الطرق وأقربها إلى أن يؤدى الشهداء الشهادة على وجهها بلا تبديل ولا تغيير ، تعظيما لله ورهبة من عذابه ورغبة فى ثوابه ، أو خوفا من الفضيحة التى تعقب استحقاقهما الإثم فى الشهادة برد أيمان الورثة بعد أيمانهم تكون مبطلة لها ، إذ من لم يمنعه خوف الله وتعظيمه أن يكذب لضعف دينه يمنعه خوف الخزى والفضيحة بين الناس .

(واتقوا الله واسمعوا والله لايهدى القوم الفاسقين) أى واتقوا الله وراقبوه فى أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة ، وأن تخونوا من ائتمنكم ، واسمعوا ما يقال لكم وما توعظون به سمع إجابة وقبول لهذه الأحكام وغيرها ، فإن لم تتقوا كنتم فاسقين عن أمر الله مطرودين من هدايته مستحقين لعقابه .

وقد استنبط العلماء من هاتين الآيتين فوائد وأحكاما نذكر أهمها فيما يلى :

(١) الحث على الوصية وعدم التهاون فى أمرها فى سفر أو حضر .

(٢) الإشهاد عليها لتثبيت أمرها والرجاء فى تنفيذها .

(٣) بيان أن الأصل فى الشاهدين عليها أن يكونا مؤمنين موثوقا بعدالتهما .

(٤) بيان أن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع ، لأن مقصد الشارع منها إذا لم يمكن أداؤه على وجه الكمال فلا يترك البتة .

(٥) شرعية اختيار الأوقات التى تؤثر فى قلوب الشهود ومقسمى الأيمان رجاء أن يصدقوا ويبروا فيها .

(٦) التغليظ على الحالف بصيغة اليمين بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون رادعا للحالف عن الكذب .

(٧) إن الأصل فى أخبار الناس وشهاداتهم أن تكون مصدقة مقبولة ، ومن ثم شرط فى تحليف الشاهدين الارتياب فى خبرهما .

(٨) شرعية تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام والخصوم فى شهادتهم ، وهو الذى عليه العمل الآن فى أكثر الأمم وقد حتمته القوانين الوضعية لكثرة ما يقع من شهادة الزور .

(٩) شرعية رد اليمين إلى من قام الدليل على ضياع حق له بيمين صار حالفها خصما له .

(١٠) إذا احتيج إلى قيام بعض الورثة فى أمر يتعلق بالتركة فأولاهم بذلك أقربهم إليه .

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ، إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ

وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) .

شرح المفردات

روح القدس : هو ملك الوحى الذى يؤيد الله به الرسل بالتعليم الإلهى والتثبيت فى المواطن التى من شأن البشر أن يضعفوا فيها ، والكتاب: كل ما يكتب ، والحكمة: العلم الصحيح الذى يبعث الإنسان على نافع العمل مع الفقه لأسرار ما يعلم ، والتوراة: ما أوحاه الله إلى موسى من الشرائع والأحكام ، والإنجيل: ما أوحاه إلى عيسى ، والخلق: التقدير أى جعل الشيء بمقدار معين ، ويستعمل فى إيجاد الله الأشياء بتقدير

معين فى علمه ، والأكمه : من ولد أعمى ، وقد يطلق على من عمى بعد الولادة أيضا ، والسحر: تمويه وتخييل به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته ، والحواريون: واحدهم حوارىّ ، وهو من أخلص سرا وجهرا فى مودتك ، وحواريو الأنبياء: المخلصون لهم ، والمائدة: الخوان الذى عليه الطعام أوالطعام نفسه ، ويستطيع أى يطيع ويرضى: والعيد، تارة يراد به الفرح والسرور، وتارة يراد به الموسم الدينى أو المدنى الذى يجتمع له الناس فى يوم معين من السنة للعبادة أو لأمر من أمور الدنيا ، وآية منك : أى علامة على صدقى فى دعوى نبوتى .

الإيضاح

(يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟) أى واذكر أيها الرسول يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجبتم ؟ أى أىّ إجابة أُجبتم؟ أإجابة إيمان وإقرار؟ أم إجابة إنكار واستكبار ؟ فهو سؤال عن نوع الإجابة لا عن الجواب ماذا كان ، والمراد من السؤال توبيخ أممهم وإقامة الحجة على الكافرين منهم .

وهذا السؤال للرسل من وادى سؤال الموءودة فى قوله تعالى : « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » فى أن كلا منهما وجه فيه السؤال إلى الشاهد دون المتهم للتوبيخ والإنكار على الفعل ، وليوم القيامة مواقف ، فى بعضها يشهد الرسل على أممهم ، وفى بعض آخر يسأل الله الأمم كما يشاهد لدى قضاة التحقيق، فقد يسأل الخصم حينا والشهود حينا آخر ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » .

ومن قِبَل أن الله تعالى يسأل كلا من الفريقين عما هو أعلم به ، وكان الرسل صلوات الله عليهم على علم يقينى بما سئلوا عنه — كان جوابهم الآتى الدال على نفى العلم عن أنفسهم وتفويضه إلى علام الغيوب فى أول عهدهم بالسؤال — لأحد أمرين : أولهما ما اختاره ابن عباس من أنهم قالوا ذلك لنقصان علمهم بالنسبة إلى علمه تعالى ،

فالله يعلم ما أظهروا وما أضمروا وهم لايعلمون إلا ما أظهروا ، فعلمه أنفذ من علمهم .
وثانيهما أن ما يفاجئهم من هول ذلك اليوم وفزعه يذهلهم عن الجواب إذ ينسون أكثر الأمور ، وهنالك يقولون لاعلم لنا ، فإذا عادت إليهم قلوبهم يشهدون لأممهم ونقل هذا عن الحسن ومجاهد والسُّدّى ، وذلك فى قوله تعالى : (قالوا لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب) .

فخلاصة هـذا على رأى ابن عباس أن المراد نفى علم الإحاطة والشمول الخاص بالله تعالى بدليل قولهم أنت علام الغيوب أى كثير العلم بكثرة المعلومات .

و بعد أن ذكر سؤال الرسل وجوابهم إجمالا بين سؤال واحد منهم بالتفصيل وجوابه لإقامة الحجة على من يدعون اتباعه ، ولـكن قدم قبل هذا ما خاطب به هذا الرسول من بداية نعمته عليه وآياته التى كانت سببا فى فتنة الناس به فقال :

(إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا) أى اذكر إنعامى عليك وعلى والدتك حين تأييدى إياك بروح القدس وتكليمك الناس فى المهد بما يبرئ أمك من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أبا له ، وذلك قوله : « إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْـكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا. وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً » وكهلا حين بعثت فيهم رسولا تقيم عليهم الحجة بما ضلوا فيه عن الصراط السوى .

وفائدة هذا القصص تنبيه النصارى الذين كانوا عصر التنزيل إلى قبح مقالتهم وسوء معتقدهم ، لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء وطعن هؤلاء تعدى إلى جلال الله وكبريائه إذ وصفوه بما لايليق به من اتخاذ الزوجة والولد .

(و إذ علمتك الـكتاب والحـكمة والتوراة والإنجيل) أى واذكر نعمتى عليك بتعليمك وتوفيقك لقراءة الـكتب والعلم النافع لك فى الدين والدنيا ولا سيما التوراة والإنجيل .

(وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى) أى واذكر نعمتى عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير فى شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا بإذن الله وتكوينه ، فأنت تفعل التقدير والنفخ ، والله هو الذى يكوّن الطير .

وفى قوله بإذنى إشارة إلى أن المسيح لم يعط هذه القوة دائما بحيث جعل السبب الروحى مطردا كالأسباب الجسمانية ، بل كانت هذه الآية كغيرها لاتقع إلا بإذن من الله وتأييده .

(وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى) جاء فى كتب العهد الجديد أنه أبرأ كثيرا من العمى والبرص وأحيا ثلاثة أموات :

(١) ابن أرملة وحيد كانوا يحملونه على النعش ، فلمس النعش وأمر الميت أن يقوم منه فقام ، فقال الشعب : قد قام فينا نبى عظيم وافتقد الله شعبه من إنجيل لوقا .

(٢) ابنة رئيس ماتت ودعاه لإحيائها فجاء بيته وقال للجمع تنحوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه ، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية — إنجيل متى .

(٣) عازر الذى كان يحبه جدا ويحب أختيه مريم ومرثا كما يحبونه ، ففى إنجيل يوحنا أنه كان مات فى بيت عنيا ووضع فى مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرفع عينيه إلى فوق وقال : (أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لى ، وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى ، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى) ولما قال هذا : صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجا ، فخرج الميت الخ .
وتعيين كل فعل بالإذن للدلالة على أنه ما وقع شىء منها إلا بمشيئة الله وقدرته وتيسيره .

(وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) أى واذكر نعمتى عليك حين كففت عنك بنى إسرائيل

فلم يتمكنوا من قتلك وصلبك، وقد كانوا أرادوا ذلك ، وقال الكافرون منهم ما هذا إلا ساحر، وما جاء به من البينات لم يكن إلا سحرا ظاهرا ، وليس من جنس ماجاء به موسى ، على أنه مثله أو أظهر منه .

والخلاصة — إنهم لايعتدّون بما جاء على يديه من الآيات وخوارق العادات ولا يؤمنون به وإن جاء بآيات أخرى إذ لم يكن طعنهم لشبهات تتصل بها بل كان عنادا ومكابرة ، ومن ثم ادعوا أن السحر صنعته ، والتمويه وقلب الحقائق دأبه وعادته.

(وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) الوحى فى اللغة: الإشارة السريعة الخفية ، والإعلام بالشىء بسرعة وخفاء ، والمراد به هنا ما يلقيه الله فى نفوس الأحياء من الإلهام كما فى قوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً » وقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ » وهكذا ألقى الله فى قلوب الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسى عليه السلام ، أى واذكر نعمتى عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك وقد كذبك جمهور بنى إسرائيل وجعلتهم أنصارا لك يؤيدون دعوتك وينشرون شريعتك ، وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا آمنا أى بالله وبرسوله عيسى عليه السلام ، وأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون أى مخلصون فى إيمانهم مذعنون لأوامره وتاركون لنواهيه .

ثم ذكر كلاما منقطعا عما قبله ليبين ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه عقب حكاية ما صدر من الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله عليه ، فقال :

(إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) أى اذكر للناس وقت قول الحواريين لعيسى : ياعيسى هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته ذلك ؟

وفسر بعضهم الاستطاعة بمعنى القدرة وقالوا إن هذا السؤال لايصدر عن مؤمن صحيح الإيمان وأجابوا عن ذلك بعدة أجوبة :

(١) إن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان لا للشك فى قدرة الله على ذلك ، كما سأل إبراهيم صلى الله عليه وسلم رؤية كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه بإيمان الشهادة والمعاينة مع إقراره بإيمانه بذلك الغيب .

(٢) إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية أى هل ينافى الحكمة أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فإن ما ينافى الحكمة لا يقع وإن كان مما تتعلق به القدرة كعقاب المحسن على إحسانه وإثابة الظالم على ظلمه .

(٣) إن المراد هل تستطيع سؤال ربك .

(قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى قال لهم عيسى اتقوا الله أن تقترحوا عليه أمثال هذه المقترحات التى كان سلفكم يقترحها على موسى لئلا تكون فتنة لكم ، فإن من شأن المؤمن الصادق ألا يجرب ربه باقتراح الآيات .

وقد يكون المعنى — اتقوا الله وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عليه تعالى عسى أن يوفقكم إلى ذلك .

(قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) أى قالوا نطلبها لفوائد :

(١) إننا نريد أن نأكل منها لأننا محتاجون إلى الطعام ، فإن الجوع قد غلبنا ولا نجد طعاما آخر .

(٢) إننا إذا شاهدنا نزولها ازداد اليقين وقويت الطمأنينة ، إذ ينضم علم المشاهدة باللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال .

(٣) أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بنى إسرائيل الذين لم يحضروها أو من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة ، وبذا يؤمن المستعد للايمان ويزداد الذين آمنوا إيمانا .

(قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) أى إن عيسى عليه السلام

لما علم صحة قصدهم وأنهم لايريدون تعجيزه ولا اقتراح آية — دعا الله بهذا الدعاء وناداه بالاسم الكريم الدال على الألوهية والقدرة والحكمة إلى نحو أولئك من صفات الكمال ، ثم باسم الرب الجامع لمعنى الملك والتدبير والتربية والإنعام .

أى يألله يا مالك أمرنا ومتولى تربيتنا أنزل علينا مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم وتتغذى بها أبدانهم ، وتكون عيدا خاصا بنا معشر المؤمنين دون غيرنا ، بأول من آمن منا وآخر من آمن ، واجعلها علامة من لدنك ترشد القوم إلى صحة دعوتى وصدق نبوتى ، وارزقنا منها ومن غيرها ما به تتغذى أجسامنا فأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب .

ومن محاسن هذا الدعاء أنه أخر ذكر الفائدة المادية للمائدة عن ذكر فائدتها الدينية الروحية ، بعكس ما فعله الحواريون ، إذ قدموا الأكل على غيره من الفوائد الأخرى .

(قال الله إنى منزلها عليكم) أى وعد الله عيسى بإنزال المائدة مرة أو مرارا لكنه رتب شرطا على هذا الوعد فقال :

(فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين) أى إن من يكفر منكم بعد نزول هذه الآية التى اقترحتموها ، وجاءت بطريق لا لبس فيه ولا شك ، فإنى أعذبه عذابا شديدا لا أعذب مثله أحدا من سائر كفار العالمين ، لأن عقاب المخطئ أو الكافر يكون بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر فى نفسه ، والبعد فيه عن الشبهة والعذر ، وأى شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله تترى ، ثم يقترح آية خاصة تشترك فى العلم بها حواسه جميعا وينتفع بها فى دنياه قبل آخرته ، فيعطَى ما طلب ، ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه ويكون من الكافرين .

وللعلماء فى الطعام الذى نزل فى المائدة آراء : فقيل هو خبز وسمك ، وقيل خبز ولحم ، وقيل كان ينزل عليهم طعاما أينما ذهبوا كما كان ينزل المن على بنى إسرائيل كما رواه ابن جرير عن ابن عباس .

وجاء فى إنجيل يوحنا أنه كان يطعم الألوف فى عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين — أكل منها أول ذلك الجمع كآخره

وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠).

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذه الآيات فى تعداد النعم التى أنعم الله بها على عيسى، وإلهام الله للحواريين الإيمان به وبرسوله وطلب الحواريين من عيسى إنزال مائدة من السماء ثم طلب عيسى من ربه إجابة مطلبهم، وإخبار الله تعالى بأنه أجابهم إلى ما طلبوا .

ولا يزال الكلام فى هذه الآيات مع عيسى أيضا، ففيها سؤال من الله على مرأى من قومه توبيخا وتقريعا لهم على افترائهم ، وإجابة من عيسى عن ذلك فيها تنصل من ذلك الذنب العظيم الذى اقترفوه بعده وهو القول بالتثليث ، ثم إخبار من الله بما ينجى الإنسان من عذاب يوم القيامة ، مع بيان أن مافى السموات والأرض كله مملوك لله وفى قبضته يتصرف فيه بعدله وحكمته وهو القادر على كل شىء لا شريك له يمنعه إن أعطى أو يلزمه بالإعطاء إن منع .

الإيضاح

(وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟) الخطاب فى هذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم جميعا عما أجابت به أممهم ، حين يقول لعيسى اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك . . . وحين يقول له بعد ذلك : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين ؟ أى يسأله أقالوا هـذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم؟

ومعنى قوله من دون الله أى متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وذلك إما أن يكون باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك ، إذ عبادة الشريك المتخذ غير عبادة الله خالق السموات والأرض ، سواء اعتقد المشرك أن هذا الشريك ينفع ويضر استقلالا ، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب ، أو بالوساطة عند الله أى بما له من التأثير والكرامة على النفع والضر وهذا هو الأكثر الذى كان عليه مشركو العرب عند البعثة ، كما حكاه الله عنهم فى قوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » وقوله : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » .

وقلّ أن يوجد من المشركين من يتخذ إلها غير الله متجاوزا بعبادته الإيمان بالله الذى هو خالق الكون ومدبره ، فالإيمان الفطرى الذى غرس فى نفوس البشر يرشد إلى أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك كنهها أحد ، فالموحدون أتباع الأنبياء يتوجهون بعباداتهم إلى رب هذه السلطة الغيبية وحده اعتقادا منهم أنه هو الفاعل الكامل التصرف ، و إن نسب الفعل إلى غيره فبإقدار الله إياه وتسخيره له بمقتضى سننه فى خلقه ، والمشركون يتوجهون إليه تارة و إلى بعض ما يستكبرون من خلقه تارة أخرى كالشمس والنجم والملائكة و بعض مخلوقات أخرى ، و يتوجهون أحيانا إليهما معا فيجعلون تلك المخلوقات المعظمة وسيلة إلى خالق الأكوان ومدبر الكائنات .

والخلاصة — إن اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره سواء أكانت خالصة لغيره أو شركة بينه و بين غيره ولو بدعاء هذا الغير والتوجه إليه ليكون واسطة عنده.

وقد نعى الله عليهم اتخاذ المسيح إلها فى مواضع عدة من هذه السورة ، وعبادة أمه كانت معروفة فى الكنائس الشرقية والغربية ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانس (إصلاح المسيحية) التى جاءت بعد الإسلام بزمن طويل .

وهذه العبادة منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود ، ومنها ما هو استغاثة واستشفاع ، ومنها ما هو صيام ينسب إليها و يسمى بصيام العذراء ، وكل أولئك يقترن بخشوع وخضوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها وأنها تنفع وتضر فى الدنيا والآخرة إما بنفسها أو بواسطة ابنها و يسمونها (والدة الإله) .

والآية ترشد إلى أنهم اتخذوها هى وابنها إلهين (والاتخاذ غير التسمية) فيصدق بالعبادة وهى واقعة حتما .

(قال سبحانك) التسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وأصل الكلمة من السبح والسباحة، وهى الذهاب السريع البعيد فى البحر أو البر ومنه فرس سبوح .

أى أنزهك يا ألله عن أن يكون معك إله آخر ، وبذا أثبت له التنزيه عن المشاركة فى الذات والصفات .

ثم انتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس بحق فقال :

(ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) أى ليس من شأنى ولا مما يصح أن يقع منى أن أقول قولا لا حق لى أن أقوله ، لأنك أيدتنى بالعصمة عن مثل هذا القول الباطل .

وهو بتنزيهه الله أولا أثبت أن ذلك القول الذى نسب إليه قول لا شائبة فيه من الحق وليس من شأنه ولا مما يقع من مثله .

وقد أكد هـذا النفى مرة أخرى بحجة أخرى ارتقى فيها من برهان راجع إلى نفسه وهو عصمته عليه السلام إلى برهان أعلى راجع إلى ربه علام الغيوب فقال :

(إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) أى إن ذلك القول إن كان قد صدر منى فقد علمته ، إذ علمك واسع محيط بكل شىء ، فأنت تعلم ما أسره وأخفيه فى نفسى فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه وعلمه منى غيرى؟ كما أنى لا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التى لا ترشدنى إليها بالكسب والاستدلال ، لكنى أعلم ما تظهره لى بالوحى بواسطة ملائكتك المقربين إليك .

(إنك أنت علام الغيوب) أى لأنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك ، ما كان منها وما سيكون وما هو كائن ، وعلم غيرك مستمد من فيضك لا من ذاته ، فهو إما أن يناله بواسطة المشاعر والحواس أو العقل ، وإما أن يتلقاه هبة منك بالوحى والإلهام .

وبعد تنزيه ربه وتبرئة نفسه وإقامة البراهين على ذلك ـ بين حقيقة ما قاله لقومه ، إذ الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة إلا بإثبات ما يجب أن يكونوا عليه من أمر التوحيد بعد نفى ضده ، فقال :

(ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ـ أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى إنى ما قلت لهم فى شأن الإيمان وأساس الدين إلا ما أمرتنى بالتزامه اعتقادا وتبليغا لهم بأنك ربى وربهم وأننى عبد من عبادك مثلهم إلا أنك خصصتنى بالرسالة إليهم .

(وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) أى وكنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون وما يفعلون فأقر الحق وأنكر الباطل مدة وجودى بينهم .

(فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) أى فلما قبضتنى إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دونى ، لأنى إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم ، وأنت تشهد على كل شىء إذ لا يخفى عليك شىء ، وفى هذا إيماء إلى أن الله إنما عرفه أفعال القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه بقوله : (ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين) .

وقد تقدم فى هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة ، وذلك قوله : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

وجاء فى إنجيل يوحنا : (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

ثم فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى فقال :

(إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أى إن تعذب من أرسلتنى إليهم فبلغتهم ما أمرتنى به من توحيدك وعبادتك فضلّ منهم من ضل وقالوا ما لم أقله ، واهتدى منهم من اهتدى فلم يعبدوا معك سواك ، فإنهم عبادك وأنت الرحيم بهم ، ولست أنا ولا غيرى من الخلق بأرحم بهم منك ، وإنما تجزيهم على حسب علمك بما يظهرون وما يبطنون ، فأنت العليم بالمؤمن المخلص فى إيمانه

وبمن أشرك بك غيرك أو بمن أطاعك وبمن عصاك وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

وإن تغفر فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة ، وإنك أنت العزيز الغالب على أمره ، الحكيم فى تصرفه وصنعه فيضع كل جزاء وكل فعل فى موضعه .

وخلاصة المعنى — إنك إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب ، وإن تغفر فإنما تغفر لمن هو أهل لذلك ، ومهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته ، لأنك أنت العزيز الذى يَغلب ولا يُغلب ، ويَمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع ، وأنت الحكيم الذى تضع كل شىء موضعه ، فلا يمكن أحدا غيرك أن يرجعك عنه .

ومن هذا تعلم أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئا من الشفاعة لقومه ، ومما يؤيد هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص «أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى فى إبراهيم صلى الله عليه وسلم : « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي » الآية ، وقول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فرفع يديه إلى السماء وقال : (اللهم أمتى أمتى) وبكى، فقال الله عز وجل ياجبريل اذهب إلى محمد —وربك أعلم— فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال —وهو أعلم— فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك» ، وما رواه البخارى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا وإنه يجاء برجال من أمتى يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال فأقول : أصحابى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم — إلى قوله الحكيم) قال فيقال إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم » وما رواه أحمد والنسائى وابن مردويه «أنه صلى الله عليه وسلم قام بهذه الآية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك ... الخ) حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبو ذر عن ذلك

فقال : إنى سألت ربى الشفاعة فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا » .

فهذه الأحاديث صريحة فى أن الشفاعة لا ينالها أحد يشرك بالله شيئا .

(قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) أى قال الله تعالى : إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينفع فيه الصادقين صدقهم فى إيمانهم وفى شهاداتهم وفى سائر أقوالهم وأحوالهم .

ثم بين هذا النفع فقال :

(لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) أى للصادقين جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الآخرة ثوابا من عند الله ، ورضى الله عنهم ورضوا عنه ، وهذا غاية السعادة الأبدية ، إذ لا مطلب لهم أعلى منه حتى تمتد أعناقهم إليه وتتطلع نفوسهم لبلوغه كما قال تعالى : «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وقوله : ذلك الفوز العظيم ، أى ذلك الذى ذكر من النعيمين الجثمانى والروحانى اللذين يحصلان بعد النجاة من أهوال يوم القيامة ، لأن الفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده أو مما يحول دونه كما قال تعالى : « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ »
وبعد أن بين مالأهل الصدق عنده من الجزاء الحق فى مقعد الصدق ، بين عقبه سعة ملكه وعموم قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره فقال :

(لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير) أى إن الملك كله والقدرة كلها لله وحده ، وفى قوله : وما فيهن، تعريض بأن المسيح وأمه اللذين عبدا من دون الله داخلان تحت قبضته تعالى ، إذ الملك والقدرة له وحده فلا ينبغى لأحد أن يتكل على شفاعتهما « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وغاية ما أعطاهم الكرامة لديه والمنزلة الرفيعة من بين عباده « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

إلمامة بما تضمنته السورة من التشريع والأحكام الاعتقادية والعملية

أهم الأصول التى انفردت بها هذه السورة :

(١) بيان أن الله أكمل هـذا الدين الذى ارتضى لهم ، وأن دين الله واحد وإن اختلفت شرائع الأنبياء ومناهجهم ، وأن هذا الدين مبنى على العلم اليقينى فى الاعتقاد والهداية فى الأخلاق والأعمال ، وأن التقليد فيه باطل لا يقبله الله ، وأن أصول الدين الإلهى على ألسنة الرسل كلهم هى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، فمن أقامها كما أمرت الرسل من أى ملة كاليهود والنصارى والصابئين فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

(٢) بيان عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وأمره بالتبليغ العام ، وأنه لا يكلف إلا التبليغ فقط ، ومن حجج رسالته أنه بين لأهل الكتاب كثيرا مما كانوا يخفون من كتبهم مما ضاع قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومما كانوا يكتمونه من الأحكام اتباعا لأهوائهم ، وأن هذا الرسول قد عصمه الله وحفظه من أن يضره أحد أو يصده عن تبليغ رسالة ربه ، وأننا نهينا عن سؤاله عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف .

(٣) بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفرادا وجماعات ، وأنه لا يضرهم من ضل إذا هم استقاموا على صراط الهداية ، فهو لا يضرهم لا فى دنيا ولا دين ، ومن ذلك الوفاء بالعقود التى يتعاقدون عليها فى جميع المعاملات الدنيوية ، وتحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم ، والتعاون على البر والتقوى كتأليف الجماعات العلمية والخيرية وتحريم التعاون على الإثم والعدوان ، وتحريم موالاة المؤمنين للكافرين وبيان أن ذلك من آيات النفاق .

(٤) تفصيل أحكام الطعام حلاله وحرامه ، و بيان أن التحريم منه إما ذاتى كالميتة وما فى معناها ، و إما لسبب دينى كالذى يذبح للأصنام ، و بيان أن الضرورات تبيح المحظورات .

(٥) تحريم الخمر وكل مسكر ، والميسر وهو القمار ومافى حكمه (كالمضاربات فى البورصة) .

(٦) وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة بين غير المسلمين والمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء وتأكيد وجوب ذلك فى سائر الأحكام .

(٧) بيان تفويض أمر الجزاء فى الآخرة إلى الله وحده ، وأن النافع فى ذلك اليوم هو الصدق .

وكان مسك ختامها ذكر الجزاء فى الآخرة بما يناسب أحكامها كلها ، وقد روى أحمد والنسائى والحاكم وصححه والبيهقى عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت : يا جبير تقرأ المائدة ؟ قلت نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ، وروى أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى عن عبد الله بن عمر قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح .

سورة الأنعـــام

آيها خمس وستون ومائة ، نزلت بعد الحجر .

وهى مكية إلا الآيات ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣

وقد روى كثير من المحدثين عن غير واحد من الصحابة والتابعين أن هذه السورة نزلت جملة واحدة .

مناسبة هذه السورة لما قبلها

الناظر إلى ترتيب السور كلها فى المصحف يرى أنه قد روعى فى ترتيبها الطول والتوسط والقصر فى الجملة ، ليكون ذلك أعون على التلاوة وأسهل فى الحفظ ؛ فالناس يبدءون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطوال إلى المئين فالمثانى فالمفصل أنفى للملل وأدعى إلى النشاط ، ويبدءون بحفظه من آخره لأن ذلك أسهل على الأطفال ، ولأنه قد روعى التناسب فى معانى السور مع التناسب فى مقدار الطول والقصر

ووجه مناسبتها لآخر سورة المائدة من وجوه عدة :

(١) إن معظم سورة المائدة فى محاجة أهل الكتاب ، ومعظم سورة الأنعام فى محاجة المشركين .

(٢) إن سورة الأنعام قد ذكرت فيها أحكام الأطعمة المحرمة والذبائح بالإجمال ، وذكرت فى المائدة بالتفصيل وهى قد نزلت أخيرا .

(٣) إن هذه افتتحت بالحمد وتلك اختتمت بفصل القضاء وبينهما تلازم كما قال : « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) .

شرح المفردات

الحمد : هو الثناء الحسن والذكر الجميل ، والظلمة : الحال التي يكون عليها كل مكان لا نور فيه ، والنور قسمان : حسى وهو ما يدرك بالبصر ، ومعنوى عقلى يدرك بالبصيرة ، والجعل : هو الإنشاء والإبداع كالخلق ، إلا أن الجعل مختص بالإنشاء التكوينى كما فى هذه الآية ، والتشريعى كما فى قوله : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ » الآية ، والخلق عام .

ولم يذكر النور فى القرآن إلا مفردا والظلمة إلا جمعا ، لأن النور واحد وإن تعددت مصادره ، والظلمة تحدث مما يحجب النور من الأجسام غير النيرة وهى كثيرة ؛ وكذلك النور المعنوى شيء واحد ، والظلمات متعددة فالحق واحد لا يتعدد والباطل الذى يقابله كثير ، والهدى واحد والضلال المقابل له كثير ، فالتوحيد يقابله التعطيل ، والشرك فى الألوهية بأنواعه والشرك فى الربوبية بضروبه المختلفة .

وقدمت الظلمات فى الذكر على النور لأن جنسها مقدم فى الوجود فقد وجدت مادة الكون وكانت دخانا مظلما أو سديما كما يقول علماء الفلك ، ثم تكونت الشموس بما حدث فيها من الاشتعال لشدة الحركة ، وإلى هذا يشير حديث عبد الله

ابن عمرو عند أحمد والترمذى « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل » .

وكذلك الظلمات المعنوية أسبق وجودا ، فإن نور العلم والهداية كسبى فى البشر ، وغير الكسبى منه كالوحى، فتلقيه كسبى وفهمه والعمل به كسبيان أيضا ، وظلمات الجهل والأهواء سابقة على هذا النور « وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ويعدلون أى يعدلون به غيره ويجعلونه عديلا مساويا له فى العبادة والدعوة لكشف الضر وجلب النفع، فهو بمعنى يشركون به ويتخذون له أندادا ، والأجل هو المدة المضروبة للشىء أى المقدار المحدود من الزمان ، وقضاء الأجل : تارة يطلق على الحكم به وضربه للشىء كما قضى شعيب عليه السلام أجلا لخدمة موسى له ثمانى سنوات وأجلا اختياريا سنتين ، ويطلق أخرى على القيام بالشىء وفعله كما قال : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ » الآية ، وتمترون أى تشكون فى البعث .

الإيضاح

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) أى الحمد والشكر للذى خلقكم وخلق السموات والأرض فهو المستوجب للحمد بنعمه عليكم ، لا من تعبدون من دونه وتجعلونه له شريكا من خلقه .

والخلاصة — إن المراد بالسموات والأرض العوالم العلوية التى يرى كثير منها فوقنا، وهذا العالم الذى نعيش فيه، وكذلك هو الذى أوجد الظلمات والنور . واختلف العلماء فى المراد منهما ، فمن قائل إن المقصود منها ظلمة الليل ونور النهار وإلى هذا جنح ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ، وفى ذلك رد على المجوس (الثنوية) الذين

زعموا أن للعالم ربين أحدهما النور وهو الخالق للخير والثانى الظلمة وهو الخالق للشر، ومن قائل إن المراد منهما الكفر والإيمان وروى هذا عن ابن عباس .

(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى إنه مع استحقاقه الحمد والعبادة لذاته ولما بيّن من شئونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ، لم يعمل هؤلاء الكفرة بما يرشد إلى ذلك ، بل عدلوا به سواه وسووه به فى العبادة التى هى أقصى غاية الشكر .

والخلاصة — كأنه قال أى وهم مع ذلك يعدلون به غيره ويجعلونه مساويا له .

وبعد أن وصف الخالق تعالى بما دل على توحيده واستحقاقه للحمد ـ انتقل إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره فى العبادة مذكرا لهم بدلائل التوحيد والبعث فقال :

(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون) أى هو الذى خلقكم من الطين (التراب الذى يخالطه ماء) فقد خلق أباكم آدم من الطين كما خلق سائر الأحياء التى فى هذه الأرض بل خلق كل فرد من أفراد البشر من سلالة من طين ، فإن بنية الإنسان مكونة من الغذاء ومن ذلك البويضات التى فى الأنثى والحيوان المنوى الذى فى الذكر فكلاهما مكونة من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولدة من النبات فالمرجع إلى النبات ، والنبات من الطين ، والناظر فى كل هذا يعلم جليا أن القادر على كل هذا لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه عند انقضاء آجاله التى قضاها له فى أجل آخر يضرب به لهذه الإعادة على حسب علمه وحكمته .

والآية ترشد إلى أنه تعالى قضى لعباده أجلين أجلا لحياة كل فرد منهم ينتهى بموته ، وأجلا لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء عمر الدنيا .

ومعنى كونه مسمى عنده : أنه لا يعلمه غيره ، لأنه لم يطلع أحدا على يوم القيامة ، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

(وهو الله فى السموات وفى الأرض) أى إنه تعالى هو المتصف بهذه الصفات المعروفة المعترف له بها فى السموات والأرض ، ونظير هذا أن تقول إن حاتما هو حاتم فى طيء وفى جميع القبائل ، أى هو المعروف بالجود المشهور به فى قومه وفى غيرهم .

(يعلم سركم وجهركم) هذا تقرير وتوكيد لما قبله ، لأن الذى يستوى فى علمه السر والعلانية هو الله وحده .

(ويعلم ما تكسبون) من الخير والشر فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) .

شرح المفردات

الآيات هنا : آيات القرآن المرشدة إلى آيات الأكوان والمثبتة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والإعراض: التولى عن الشيء ، والحق : هو دين الله الذى جاءهم به خاتم رسله من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب ، والأنباء : ما فى القرآن من وعد بنصر الله لرسله وإظهار لدينه، ووعيد لأعدائه بخذلانهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة ، والقرن من الناس : القوم المقترنون فى زمن واحد وجمعه قرون ، وقد جاء فى القرآن

مفردا وجمعا ، ومكنه فى الأرض أو فى الشىء : جعله متمكنا من التصرف فيه ، ومكن له : أعطاه أسباب التمكن فى الأرض كقوله : «وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ» وقوله : « أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ؟ » والسماء: المطر، والمدرار: الغزير.

المعنى الجملى

بعد أن أرشد الله تعالى فى الآيات السالفة إلى دلائل وحدانيته ، ودل على أنها مع ظهورها لم تمنع الكافرين من الشرك ، وإلى دلائل البعث ، وأنها على شدة وضوحها لم تمنع المشركين من الشك والريب ، وإلى أن الله المتصف بتلك الصفات التى تعرفونها هو الله المحيط علمه بما فى السموات والأرض فلا ينبغى أن يشرك به غيره فيهما ، ولكن المشركين جهلوا ذلك وجوزوا أن يكون غير الرب إلها ، بل عبدوا معه آلهة أخرى .

ذكر هنا سبب عدم اهتدائهم بالوحى ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بالحق ، ثم كشف لهم فيما بعدُ شبهاتهم على الوحى و بعثة النبى صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) أى وما تنزل عليهم آية من آيات القرآن التى من جملتها تلك الآيات الناطقة بتفصيل بدائع صنع الله المنبعثة بجريان أحكام ألوهيته على جميع الكائنات ـ إلا أعرضوا عنها استهزاء وتكذيبا غير متدبرين معناها ولا ناظرين فى دلالتها .

ولما بين سبحانه أن شأنهم الإعراض عن الآيات المنزلة رتب عليه قوله :

(فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) أى فبسبب ذلك الإعراض العام عن النظر فى الآيات كذبوا بالحق الذى جاءهم حين جاءهم ولم يتريثوا ولم يتأملوا ، لأنهم سدوا على أنفسهم مسالك العلم .

وهذا الحق الذى كذبوا به هو الدين الذى جاء به خاتم أنبيائه بما اشتمل عليه من آداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ، إلى نحو أولئك مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

(فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) النبأ الخبر العظيم أى فستكون عاقبة التكذيب أن تحل بهم العقوبات العاجلة التى نطقت بها الآيات وعيدا لهم من القتل والسبى والجلاء عن البلاد ، ووعدا لرسوله من النصر له و إظهار دينه على الدين كله .

وقد أتاهم ذلك فكان منه ما نزل بهم من القحط ، ومن الخذلان يوم بدر ، ثم تم ذلك يوم الفتح .

و بعد أن توعدهم سبحانه بنزول العذاب بهم بين أن هذا مما جرت به سنته فى المكذبين فقال :

(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم ؟) أى ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق أنا أهلكنا كثيرا من الأقوام الذين كذبوا الرسل قبلهم بعد أن أعطيناهم من التمكين والاستقلال فى الأرض وأسباب التصرف فيها مالم نعطهم مثله ، ثم لم تكن تلك النعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم وعتوهم واستكبارهم .

وذكر بعد هذا ما امتازت به تلك القرون على كفار قريش من النعم الإلهية التى اقتضتها طبيعة بلادهم وخصب تربتها فقال :

(وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) الإرسال تارة يكون ببعث من له اختيار كإرسال الرسل ، وتارة بالتسخير كإرسال الريح والمطر ، وتارة بترك المنع نحو « إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى وسخرنا لهم الأمطار الغزيرة التى تكوّن الأنهار المترعة بالمياه ، وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها

تجرى دائما تحت مساكنهم التى يبنونها على ضفافها ، أو فى الجنات والحدائق التى تتفجر خلالها فيتمتعون بالنظر إلى جمالها واستنبات الأشجار والثمار التى يأكلونها ، ويولدون النعم والماشية التى تتغذى من مراعيها .

والخلاصة — إنهم أوتوا من البسطة فى الأجسام والامتداد فى الأعمار والسعة فى الأموال والاستمتاع بلذات الدنيا مالم يؤته أهل مكة ، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئا فكفروا بأنعم الله ولم يؤمنوا بما جاءهم به أنبياؤهم بل كذبوهم فاستحقوا العقاب وإلى ذلك أشار بقوله .

(فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) أى فكان عاقبة أمرهم أن أهلكنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التى كانوا يجترحونها ، وأوجدنا من كل منهم قرنا آخر يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكران النعمة .

والذنوب التى تدعو إلى الهلاك ضربان :

(١) معاندة الرسل والاستكبار والعتو والتكذيب .

(٢) كفران النعم بالبطر وغمط الحق وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور والغرور بالغنى والثروة ، كما جاء فى قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » .

وفى هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفقرهم كما حكى الله عنهم فى قوله : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

وهؤلاء القوم الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله لابد أن يختلفوا عنهم فى صفاتهم وإن كانوا من أبناء جنسهم ، فالعبر والحوادث واختلاف الزمن لها تأثير

كبير فى النفوس تخفف من غلواء الناس وتقلل من بطشهم وعتوهم ، وفى المشاهدة أكبر دليل على صحة ذلك .

انظر إلى ما فعلته الحرب العظمى الثانية فى نفوس الشعوب فى الشرق والغرب ، فإنه قد نشأ بعدها جيل أقل بطرا وانغماسا فى الشهوة والترف وما ينشأ عنهما من الفسق والفجور من سابقه ، وكذلك فى حسن معاملة الناس بعضهم لبعض وحفظ الحقوق والمساواة فيها .

ولا يعلم إلا الله ما ستنتهى إليه تلك الحرب الضروس الدائرة رحاها الآن ولا ما ستتمخض عنه من الحوادث الجسام فى مستقبل الأمم والشعوب ، ولا ما سيكون لها من التأثير فى النظم الاجتماعية والاقتصادية والصلات والروابط بين بعض الأمم و بعض .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) .

شرح المفردات

الكتاب : الصحيفة المكتوبة ومجموعة الصحف فى غرض واحد ، والقرطاس (مثلث القاف) الورق الذى يكتب فيه ، واللمس كالمس: إدراك الشىء بظاهر البشرة، وقد يستعمل بمعنى طلب الشىء والبحث عنه ، و يقال لمسه والتمسه وتلمسه ، ومنه « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » وسحر أى خداع وتمويه يرى مالاحقيقة له فى صورة الحقائق ، لقضى الأمر أى لتم أمر هلاكهم ، لا ينظرون أى لا يمهلون ، اللبس : الستر والتغطية

يقال لبس الثوب يلبسه (بكسر الباء فى الأول وفتحها فى الثانى) ولبس الحق بالباطل يلبسه (بفتح الباء فى الأول وكسرها فى الثانى) بمعنى ستره به ، أى جعله مكانه ليظن أنه الحق ، ولبست عليه أمره أى جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد سبحانه فى الآيات المتقدمة إلى ما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث ، ثم ذكر بعدها الأسباب التى دعت قريشا إلى التكذيب ، وأنذرهم عاقبة هذا التكذيب بما يحل بهم من عذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وأنه لا يحول دونه ماهم فيه من قوة وضعف الرسول صلى الله عليه وسلم وتمكنهم فى مكة وهى أم القرى ، وأهلها القدوة والسادة بين العرب .

وذكر هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحى وبعثة الرسول ، وبها تم بيان أسباب جحودهم وإنكارهم لأصول الدين الثلاثة . (التوحيد والبعث ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم) .

روى ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن إسحق سبب نزول الآية الثانية قال « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له زَمْعةَ بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحرث بن كَلَدة وعبدة بن عبد يغوث وأبىّ ابن خلف والعاصى بن وائل بن هشام : لو جعل معك يامحمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ــ فأنزل الله فى ذلك : ــ وقالوا لولا أنزل عليه ملك » .

ورجح بعضهم أن هذا السبب لا يصح فى هذه الآية ، لأن اقتراح المعاندين من المشركين إنزال الملك مع الرسول مذكور فى سور من القرآن أنزلت قبل هذه السورة ، فما فيها إنما هو رد على شبهة سبقت وحكيت عنهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة مذكور فى سورة الفرقان .

الإيضاح

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعجب من كفر قومه به وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه وإظهار إعجازه ، وكان يضيق صدره لذلك ويبلغ منه الحزن والأسف كل مبلغ كما قال فى سورة هود « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » .

فبين الله أسباب ذلك ومناشئه من طباع البشر وأخلاقهم ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة فإنها لاتجدى إلا عند من كان مستعدا لها وزالت منه موانع الكبر والعناد وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

(ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) أى إن علة تكذيبهم بالحق هى إعراضهم عن الآيات وإقفال باب النظر والاستدلال لاخفاء الآيات فى أنفسها وقوة الشبهات التى تحوم حولها ، فلو أننا نزلنا عليك كتابا من السماء فى قرطاس فرأوه نازلا فيها بأعينهم ولمسوه عند وصوله إلى الأرض بأيديهم لقال الذين كفروا منهم : ما هذا الذى رأيناه ولمسناه إلا سحر بين فى نفسه ، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتابا ولمسناه ، وما ثَمَّ كتاب نزل ولا قرطاس رئى ولا لمس ، وتلك مقالة أمثالهم فى آيات الأنبياء من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإنما قال لمسوه بأيديهم ليبين أن المراد باللمس المعنى الأول لا الثانى ، ومن ثم قال قتادة فعاينوه ومسوه بأيديهم ، وقال مجاهد فمسوه ونظروا إليه ؛ واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها عن الخداع ، لأن البصر يخدع بالتخييل ، وجاء فى سورة الحجر : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ [حبست ومنعت] أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

(وقالوا لولا أنزل عليه ملك) كان لكفار مكة اقتراحان تقدموا بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى مواطن مختلفة :

(١) أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيرا يرونه ويسمعون كلامه ، وإلى هذا تشير الآية .

(٢) أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم .

والاقتراح الأول مبنى على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقا وآدابا وهم الرسل عليهم السلام ليسوا بأهل لأن يكونوا رسلا بين الله و بين عباده ، لأنهم بشر يأكلون ويشربون كما جاء فى سورة المؤمنون « وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ » .

وقد ردّ الله تعالى الاقتراحين من وجهين :

(١) (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) أى لو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكهم ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم ، قال ابن عباس : ولو أتاهم ملك فى صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون .

(٢) (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى لو جعل الرسول ملكا لجعل متمثلا فى صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذى يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا فى صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا ، ولا ينفكون

يقترحون جعله ملَكا ، وهم قد كانوا فى غنى عن ذلك ، وهذا شأن كثير من الناس يوقعون أنفسهم فى المشكلات بسوء صنيعهم ثم يحارون فى الخلص منها .

وذكر البخارى فى تفسير قضاء الأمر عدة وجوه :

(١) أن سنة الله قد جرت بأن أقوام الرسل إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها يعذبهم الله عذاب الاستئصال ، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التى بعث فيها خاتم رسله نبى الرحمة « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

(٢) أنهم لو شاهدوا الملَك بصورته الأصلية لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون .

(٣) أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذى هو قاعدة التكليف .

(٤) أنهم حين اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان ثم أعطوه ولم يُجد ذلك معهم نفعا دل ذلك على منتهى العناد الذى يستدعى الإهلاك وعدم النظِرة .

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) .

شرح المفردات

الهزؤ : (بضمتين أوضم فسكون) والاستهزاء : السخرية ، والاستهزاء بالشخص : احتقاره وعدم الاهتمام بأمره ، وحاق به المكروه يحيق حيقا : أحاط به فلم يكن له منه مخلص .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف اقتراحاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم تارة يطلبون إنزال ملك مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخرى يطلبون إنزال ملك بالرسالة ، وكان مبنى هـذه المقالة الاستهزاء ، وكان قلب الرسول يضيق بها ذرعا عند سماعه إياها .

ذكر هنا ما يخفف عنه ما يلاقيه منهم من سوء الأدب ومن الهزؤ والسخرية ، فأبان له أنك لست ببدع من الرسل ، فإن كثيرا منهم لاقوا من أقوامهم مثل ما لاقيت ، بل أشد من ذلك وأنكى ، فأنزل الله بهم من العذاب ما يستحقونه كفاء أفعالهم الشنيعة وجرأتهم على من اصطفاهم ربهم من خلقه ، ثم أمر هؤلاء المكذبين بأن يسيروا فى الأرض ليروا كيف كانت عاقبة المكذبين لأنبيائه .

الإيضاح

(ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أخبر الله رسوله بأن الكفار قد استهزءوا برسل كرام قبلك كما جاء فى قوله : « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » فما تراه من استهزاء كفار قريش بك ليس ببدع منهم بل هم جروا فيه على آثار أعداء الرسل قبلك، وقد حل بأولئك الساخرين العذاب الذى أنذرهم إياه أولئك الرسل جزاء على سوء صنيعهم ، وفى الآية وجوه من العبرة :

(١) تعليم النبي صلى الله عليه وسلم سنن الله فى الأمم مع رسلهم .

(٢) تسلية له عن إيذاء قومه له .

(٣) بشارة له بحسن العاقبة وما سيكون له من الغلبة والسلطان ، وما سيحل بأولئك المستهزئين من الخزى والنكال ، وقد أهلكهم الله وامتنّ على نبيه بذلك

فى سورة الحجر « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » والمشهور أنهم كانوا خمسة من رؤساء قريش هلكوا كلهم فى يوم واحد .

وخلاصة المعنى — هوّن عليك ماتلقى من هؤلاء المستخفين بحقك فىّ وفى طاعتى وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى والإذعان لطاعتى ، فإنهم إن تمادوا فى غيهم نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم ونعجل النقمة لهم وتحل بهم المثلات .

ولما كان ما يحل بالمستهزئين بالرسل من الهلاك بموجب سنة الله المطردة فيهم ، قد يكون موضعا للريبة والشك لديهم إذ هم يجهلون التاريخ ولا يأخذون خبره بالتسليم أمر الله نبيه بأن يرشدهم إلى الطريق الذى يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم فقال :

(قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى قل لأولئك المكذبين الجاحدين حقيقة ما جئتهم به : سيروا فى الأرض كما هو دأبكم وعادتكم وتنقلوا فى ديار أولئك القرون الذين مكناهم فى الأرض ومكنا لهم مالم نمكن لكم ، ثم انظروا فى أثناء رحلاتكم آثار ماحل بهم من الهلاك وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم وما تسمعون من أخبارهم ، ثم اعتبروا إن لم تنهكم حلومكم ولم تزجركم حجج الله عليكم واحذروا مثل مصارعهم واتقوا أن يحل بكم مثل ماحل بهم

قُلْ لِمَنْ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلْ لِلّٰهِ ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَاسَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)

قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لاَ أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) .

شرح المفردات

كتب على نفسه : أى أوجب إيجاب فضل وكرم ، سكن : من السكون ضد الحركة، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله أى له ما سكن وما تحرك كما جاء فى قوله تعالى «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» أى والبرد ، والولى: الناصر، ومتولى الأمر: المتصرف فيه ، فاطر السموات والأرض أى مبدعهما على غير مثال سابق ، وأصل الفطر: الشق، ومنه « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وهو يطعم ولا يطعم ، أى هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد، يصرف عنه أى يبعد عنه ، رحمه أى بإنجائه من الهول الأكبر ، المس: أعم من اللمس فيقال مسه السوء والكبر والعذاب والتعب أى أصابه ، والضر: الألم والحزن والخوف وما يفضى إليها أو إلى أحدها ، والنفع: اللذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدها ، والخير : ما كان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلة ، والشر: مالامنفعة فيه البتة أو ما كان ضره أكبر من نفعه، قال تعالى: « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» والقهر : الغلبة والإذلال ، وشهادة الشىء: حضوره ومشاهدته ، والشهادة به : الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبنى على المشاهدة

بالبصر أو بالعقل والوجدان، والإنذار: التخويف ، واكتفى به عن ذكر البشارة لمناسبته المقام أى لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن ووصل إليه من الأسود والأحمر ، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة ، مما تشركون أى من الأصنام .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى الآيات السابقة أصول الدين الثلاثة : التوحيد والبعث والجزاء ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر شبهات الكافرين على الرسالة وبين ما يدحضها ، ثم أرشد إلى سننه تعالى فى أقوام الرسل المكذبين وأن عاقبتهم الهلاك والاستئصال والخزى والنكال تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لقلبه وإعانة له على المضى فى تبليغ رسالته .

ثم ذكر هنا هذه الأصول الثلاثة بأسلوب آخر : أسلوب السؤال والجواب يهرهم فيه بالحجة ودلهم على واضح المحجة تفننا فى الحجاج فى المواضع الهامة ، فإن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها فى النفس قبول أيما قبول ، وكذلك أساليب الحِجاج إذا تنوعت دفعت عن السامع السأم وجعلته ينشط لسماع ما يلقى إليه ، فهو إذا لم يعقل الدليل الأول أو عمى عليه أسلوبه رأى فى الدليل الثانى ما ينير له طريق المطلوب أو رأى فى الأسلوب الثانى ما يكفيه مئونة البحث فى الدليل الأول فهو فى غنى عما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت أو يلجأ إلى غائب ، ومن ثم نرى الخطباء المفلقين والعلماء المبرزين ينوعون أساليب حجاجهم ويكثرون البرهانات على المطلوب الواحد ليكون ذلك أدعى إلى الإقناع وأقرب إلى الاقتناع .

الإيضاح

(قل لمن ما فى السموات والأرض ؟) أى قل أيها الرسول لقومك الجاحدين لرسالتك المعرضين عن دعوتك : لمن هذه المخلوقات علويها وسفليها ؟

وقد كانت العرب تؤمن بأن الله خالق السموات والأرض وأن كل ما فيهما ملك وعبيد له ، كما قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

والمقصود من السؤال التبكيت والتوبيخ .

(قل لله) هذا تقرير للجواب نيابة عنهم أو إلجاء لهم إلى الإقرار بأن الكل لله سبحانه ولا خلاف بينى و بينكم فى ذلك ولا تقدروا أن تضيفوا شيئا آخر إليه :

و إتيان السائل بالجواب يحسن إذا كان ما يأتى به هو عين ما يعتقده المسئول وما يجيب به إن أجاب ، و إنما يسبقه إليه ليبنى عليه شيئا من لوازمه مما يجهله المسئول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته من كونه لازما لما يعرفه و يعتقده .

(كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) أى إن الله الذى تقرون معى بأنه مالك السموات والأرض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه ، إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة و باطنة ، ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعكم إلى يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لاشك فى مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه ، للحساب والجزاء على الأعمال إذ أنه وازع نفسى لا يتم تهذيب النفوس إلا به فهو يمنع الظلم وهضم الحقوق و إيذاء الناس وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، خوفا من هول ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .

ولما كان مقتضى الرحمة والفضل أعم وأسبق من مقتضى العدل كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم ، ومنهم من يعفو الله عنه ، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولا يزاد فيه ، و إنما الزيادة فى الجزاء على الإحسان : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » .

و بيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضا ، فما مثله إلا مثل الحكومة العادلة تبين للأمة ما تؤاخذ عليه من الأعمال الضارة وما تكافئ به من يصدق فى خدمتها

ويرقى إلى سماء العزة والكرامة ، روى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » والمراد بالسبق هنا كثرة الرحمة وشمولها كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه .

والخلاصة — أنه لما قال كتب على نفسه الرحمة ، فكأنه قيل وما تلك الرحمة ؟ فقيل ليجمعنكم إلى يوم القيامة، ذلك أنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الفساد فى الأرض واختلت نظم الاجتماع وأكل القوى الضعيف ولا وازع ولا زاجر ، فصار التهديد بهذا اليوم من أسباب الرحمة .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) خسارة الأنفس إفساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله من أنواع الهدايات، فالمقلدون خسروا أنفسهم لأنهم حرموها استعمال نعمتى العقل والعلم .

أى أخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم بالتذكير والذم والتوبيخ بين من يجمعون إلى يوم القيامة ، إذ هم لخسرانهم أنفسهم فى الدنيا لا يؤمنون بالآخرة ، فهم قلما ينظرون ويستدلون ، وإن هم فعلوا قعد بهم ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللائمين واحتقار الأهل والمعاشرين .

والخلاصة — أن الفوز والفلاح فى الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم ، فمن خسر إحدى الفضيلتين فقد خسر نفسه ، فردا كان أو أمة ، فما بال من خسرهما معا .

(وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم) أى لله مافى السموات ومافى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ، وخص هذا بالذكر وإن كان داخلا فى عموم ما فى السموات والأرض ، تنبيها إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا ولا سيما إذا جن الليل وهدأ الخلق .

وبعد أن ذكر الله تعالى تصرفه فى الخلق دقيقه وجليله كما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة، ذكر أنه هو السميع العليم أى المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره ، فهو يسمع دبيب النملة فى الليلة الظلماء ، والمحيط علمه بكل شىء « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » .

والخلاصة — أنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داع ، أو تعزب عن علمه حاجة محتاج حتى يخبره بها الأولياء أو يقنعه بها الشفعاء .

وبعد هذا القول الذى أمر الله رسوله به للتذكير بأنه المالك لكل شىء والمدبر لكل شىء إذ هو سميع لكل شىء ولا يعزب عن علمه شىء — أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق ، وهو وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه إليه دون سواه فى كل ما هو فوق كسب البشر والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم فقال :

(قل أغير الله أتخذ وليا ؟) أى قل لهم لا أطلب من غيره نفعا ولا ضرا لا فعلا ولا منعا فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذى منحه الله لأبناء جنسه ، أما تناصر المخلوقين وتولى بعضهم بعضا فيما هو من كسبهم العادى فلا يدخل فى عموم الإنكار الذى يفهم من الآية ، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض .

وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله يتوجهون إليهم بالدعاء ويستغيثون بهم ويستشفعون بهم عند الله فى قضاء حاجاتهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة فى رزق إلى نحو أولئك .

وهذا بلا شك عبادة وشرك بالله لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله .

ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعا لإرادة الولى الشافع أو المتخذ وليا وشفيعا .

(فاطر السموات والأرض) أى إنه تعالى أوجدها على غير مثال سابق، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى عربيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أى ابتدعتها .

وقد كانت المادة التى خلقت منها السموات والأرض كتلة واحدة دخانية ، ففتق رتقها وفصل منها أجرام السموات والأرض وهذا لا شك أنه ضرب من الفطر والشق، قال تعالى « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » .

وفى ذلك تعريض بأن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته بدون تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع ينبغى ألا يتوجه إلى غيره بالدعاء ولا يستعان بسواه فى كل ما وراء الأسباب ، وقد أكد هذا المعنى وزاده تثبيتا بقوله :

(وهو يطعم ولا يطعم) أى إنه يرزق الناس الطعام وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه ، لأنه منزه عن الحاجة إلى كل ما سواه ، أيا كان نوعها .

وفى هذا إيماء إلى أن من اتخذوا أولياء من دونه من البشر محتاجون إلى الطعام ولا حياة لهم بدونه ، وأن الله هو الذى خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن خلقه ، وعاجزون عن البقاء بدونه ، فأحرى بهم ألا يتخذوا أولياء مع الغنى الرزاق الفعال لما يريد .

وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان لأنها أضعف من البشر، إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد ، والإنسان على جميع أنواع الحيوان .

(قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) أى قل لهم بعد أن استبانت لديكم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليا : إنى أمرت من ربى الموصوف بجليل الصفات أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لديه من تلك الأمة التى بعثت فيها ، فلا أدعو إلى شىء إلا كنت أول مؤمن به سائر على نهجه .

(ولا تكونن من المشركين) أى وقيل لى بعد إسلام الوجه له : لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقربوهم إليه زلفى .

وخلاصة ذلك — أنى أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك .

وبعد أن أمره الله بهذا القول المبين لأساس الدين ، وبين أنه مأمور به كغيره ، أمره بقول آخر فيه بيان لجزاء من خالف الأمر والنهى السالفين فقال :

(قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى قل لهم إن فرض وقوع العصيان منى فإننى أخاف أن يصيبنى عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذى يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون .

وفى الآية إشارة إلى أن هـذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيما ، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين بل الأمر يومئذ لله فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه ظنا منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه، وإذا كان خوف النبى صلى الله عليه وسلم من العذاب على المعصية منتفيا لوجود العصمة ، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له فى جميع الأحوال .

(من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين) أى من يُحوّل عنه هذا العذاب فى ذلك اليوم فقد رحمه الله ، إذ أنجاه من الهول الأكبر ، ومن نجا منه فقد دخل الجنة ، والنجاة من العذاب يومئذ والتمتع بالنعيم فى دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر .

وقد سبق أن قلنا إن الفوز إنما ينال بحصول مطلوبين: أحدهما سلبى وهو النجاة من العذاب . والثانى إيجابى وهو الظفر بالنعيم المقيم فى الجنة .

(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) أى وإن يصبك أيها الإنسان ضر كمرض وفقر وحزن وذل اقتضته سنة

الله فلا كاشف له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو، دون الأولياء الذين يتخذون من دونه ويتوجه إليهم المشرك بكشفه - وهو إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب الكسبية التى تزيله ، وإما أن يكشفه بغير عمل منك ، بل بلطفه وكرمه فله الحمد على نعمه المتظاهرة التى لا حدّ لها - وإن يمسسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو قادر على حفظه عليك كما قدر على إعطائه إياك، وهو القدير على كل شىء ، أما أولئك الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدرون على مسك بخير ولا ضر .

فعلى المؤمن الصادق فى إيمانه ألا يطلب شيئا من أمور الدنيا والآخرة من كشف ضر وصرف عذاب أو إيجاد خير ومنح ثواب - إلا من الله تعالى وحده دون غيره من الشفعاء والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وهذا الطلب إما طلب بالعمل ومراعاة الأسباب التى اقتضتها سنة الله فى الخلق ودل عليها الشرع وهدى إليها العقل ، وإما بالتوجه إلى الله ودعائه كما ندب إلى ذلك كتابه الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »

وبعد أن أثبت الله لنفسه كمال القدرة أثبت له كمال السلطان والتسخير لجميع عباده والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور ليرشدنا إلى أن من اتخذ الأولياء فقد ضل ضلالا بعيدا فقال :

(وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير) أى إن الرب من شأنه العزة والسلطان والعلو والكبرياء وهو الحكيم الخبير ، فلا ينبغى للمؤمن أن يتخذ وليا من عباده المقهورين تحت سلطان عزته المذللين لسننه التى اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الأمر فى خلقه .

والله جلت قدرته لم يجعل من خلقه شريكا له فى التصرف ولا فى كونه يدعى معه ولا وحده لكشف ضر ولا جلب نفع كما قال تعالى : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وقال : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا » .

وخلاصة المعنى — أنه تعالى هو الغالب عباده العالى عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم ، فهو فوقهم بالقهر وهم دونه ، وهو الحكيم فى تدبيره ، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها ، ولا تخفى عليه خوافى الأمور ولا بواديها ولا يقع فى تدبيره خلل ، ولا فى حكمته دَخَل .

وقد ختم الله هذه الأوامر القولية المبينة لحقيقة الدين وأدلته بشهادة الله لرسوله وشهادة رسوله له فقال :

(قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى و بينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل كفار قريش : أى شىء شهادته أكبر شهادة وأعظمها وأجدر أن تكون أصحها وأصدقها ؟ ثم أمره بأن يجيب عن هذا السؤال بأن أكبر الأشياء شهادة هو من لا يجوز أن يقع فى شهادته كذب ولا زور ولا خطأ وذلك هو الله تعالى ، وهو الشهيد بينى و بينكم وقد أوحى إلىّ هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على تكذيبى فيما جئت به مؤيدا بشهادته سبحانه ، وأنذر من بلغه هذا القرآن ، إذ كل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم القيامة .

وشهادة الله بين الرسول وقومه ضربان : شهادته برسالة الرسول ، وشهادته بصدق ما جاء به ، والأول أنواع ثلاثة :

(١) إخباره بها فى كتابه بنحو قوله « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ » وقوله « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيراً » .

(٢) تأييده بالآيات الكثيرة التى من أعظمها القرآن ، فهو المعجزة الدائمة بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله ، و بما اشتمل عليه من أخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله و إظهارهم على أعدائهم .

(٣) شهادة كتبه السابقة له و بشارة الرسل السابقين به ، ولا تزال هذه الشهادة فى كتب اليهود والنصارى .

والثانى ثلاثة أنواع أيضا :

(١) شهادة كتبه بذلك كقوله « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ » .

(٢) ما أقامه من الآيات فى الأنفس والآفاق مما يدل على توحيده واتصافه بصفات الكمال .

(٣) ما أودعه جل شأنه فى الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال وببقاء النفس .

والخلاصة — أن شهادته تعالى هى شهادة آياته فى القرآن ، وآياته فى الأكوان وآياته فى العقل والوجدان اللذين أودعهما فى نفس الإنسان .

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعا قال: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به » ثم قرأ : (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) .

وأخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبىّ بن كعب قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام ؟ قالوا لا ، فخلى سبيلهم ثم قرأ : ـ وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ـ ثم قال : خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنهم لم يدعوا » .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بالوحدانية وبالبراءة من قولهم وشهادتهم بالشرك فقال :

(أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون) بدأ الجملة بالاستفهام الدال على الإنكار والاستبعاد لما تضمنته ، ثم أمر نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون ، ثم أمره أمرا آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون ويتبرأ مما يزعمون فيصرح بأن الإله لا يكون إلا واحدا ، ويتبرأ مما يشركون به من الأصنام والأوثان وغيرهما .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) .

المعنى الجملى

روى أن الكفار سألوا اليهود والنصارى عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم فأنكروا أن فى التوراة والإنجيل شيئا يدل على نبوته ، فبين الله فى الآية السابقة أن شهادة الله على صحة نبوته كافية فى نبوتها وتحققها ، ثم بين فى هذه الآية كذبهم فى ادعائهم أنهم لا يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفونه بالنبوة والرسالة كما يعرفون أبناءهم ، فقد روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام : أنزل الله على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة ؟ فقال ياعمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى ، ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى لأنى لا أدرى ما صنع النساء ، وأشهد أنه حق من الله .

الإيضاح

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) أى إن اليهود والنصارى يعرفون أن محمدا النبى الأمى خاتم الرسل كما يعرفون أبناءهم ، لأن نعته فى كتبهم واضح ظاهر فلا يشكون فيه على حال ، ثم بين السبب فى إنكار هؤلاء المنكرين فقال :

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) أى إن علة إنكار من أنكروا نبوة

محمد صلى الله عليه وسلم من علماء اليهود كملة من أنكروا من المشركين بعد ظهور آياتها ، بل أنكروا ماهو أظهر منها وهى وحدانية الله تعالى ، إنهم خسروا أنفسهم فهم يؤثرون مالهم من الجاه والمكانة والرياسة فى قومهم على الإيمان بالرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم ، علما منهم بأنهم إذا آمنوا سلبوا الرياسة وجعلوا مساوين لسائر المسلمين فى سائر الأحكام والمعاملات .

وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعز عليه أن يؤمن فيكون تابعا ومرءوسا ويكون مثله مثل بلال الحبشى وصهيب الرومى وغيرهما من فقراء المسلمين .

فهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية خسروا أنفسهم لضعف إرادتهم لا لفقدان العلم والمعرفة ، لأن الله أخبر عنهم أنهم على علم ومعرفة .

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ، كمن زعم أن له ولدا أو شريكا أو أن غيره يدعى معه أو من دونه أو يتخذ وليا له يقرب إليه زلفى ويشفع للناس عنده ، أو زاد فى دينه ما ليس منه ، أو من كذب بآياته المنزلة كالقرآن ، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التى يؤيد بها رسله .

وإذا كان كل منهما بالغا غاية القبح وصاحبه يعد مفتريا ظالما ، فما حال من جمع بينهما فكذب على الله وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة .

ثم بين سبحانه عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم فقال :

(إنه لا يفلح الظالمون) أى إن الظالمين عامة لا يفوزون فى عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله ولا بنعيم الجنة ، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته فكان أظلم الظالمين .

(ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) أى واذكر لهم أيها الرسول يوم نحشرهم جميعا على اختلاف درجاتهم

فى ظلم أنفسهم وظلم غيرها ثم نقول للذين أشركوا منهم وهم أشدهم ظلما : أين الشركاء الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم أولياؤكم من دون الله تستعينون بهم كما يستعان به ويُدعَون كما يُدعى وأنهم يقربونكم إليه زلفى ويشفعون لكم عنده فأين هم؟ فلا يُرون معكم ؟ كما جاء فى الآية الأخرى « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

(ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) الفتنة هنا الشرك أى ثم لم تكن عاقبة هذا الشرك إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة أنهم ما كانوا مشركين.

وظاهر الآيات يدل على أنهم كانوا ينكرون فى بعض مواقف الحشر شركهم بالله توهما منهم أن ذلك ينفعهم كما جاء فى هذه الآية ، ويعترفون به فى بعض آخر كما جاء فى قوله : « هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ » وفى قوله : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله : (ولا يكتمون الله حديثا) فقال : أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا لنجحد (قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثا)

وقال الزجاج تأويل هذه الآية حسن فى اللغة لا يعرفه إلا من وقف على معانى كلام العرب ، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين فى حبه ، فذكر أن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه وافتخروا به وقالوا إنه دين آبائنا ــ لم تكن إلا الجحود والتبرؤ منه والحلف على عدم التدين به ، ومثاله أن ترى إنسانا يحب شخصا مذموم الطريقة ، فإذا وقع فى محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له ما كانت محبتك (عاقبة محبتك) لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته .

وعلى هذا فالفتنة هى شركهم فى الدنيا كما فسرها ابن عباس ويكون فى الكلام تقدير مضاف هو كلمة (عاقبة) كما قدمنا ذلك .

(انظر كيف كذبوا على أنفسهم) هـذا تعجب من كذبهم الصريح بإنكار صدور الإشراك عنهم فى الدنيا .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة بانكار صدور ما صدر عنهم ؟ وكيف ذهب عنهم ما كانوا يفترونه من الإشراك حتى نفوا صدوره عنهم بتاتا وتبرءوا منه غاية البراءة ؟.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦).

شرح المفردات

الأكنة واحدها كنان كأسنة وسنان : وهو الغطاء ، والوقر (بالفتح) الثقل فى السمع ، والآية : العلامة الدالة على صدق الرسول ، يجادلونك : يخاصمونك وينازعونك ، والأساطير واحدها إسطارة وأسطورة : وهى الخرافات والترّهات ، والنأى عنه : يشمل الإعراض عن سماعه ، والإعراض عن هدايته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال الكفار فى الآخرة وذكر ما يكون منهم من تلجلج واضطراب ، فتارة ينكرون شركهم بالله وأخرى يعترفون ، وذكر ما يواجهون به من اللوم والتقريع على الشركاء الذين اتخذوهم أولياء وشفعاء .

ذكر هنا ما يوجب اليأس من إيمان بعض منهم لوجود الموانع الصادة عنه ،

فمهما توالت الآيات والنذر لا تجدى معهم شيئا ، إذ الحجب كثيفة والأغطية سميكة ، فاختراقها عسير والوصول إليها فى حكم المستحيل .

قال ابن عباس : حضر عند النبى صلى الله عليه وسلم أبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث والحرث بن عامر وأبو جهل فى جمع كثير واستمعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، فقالوا للنضر يا أبا قُتَيلة مايقول محمد ؟ ، فقال: والذى جعلها (الكعبة) بيته ما أدرى ما يقول إلا أنى أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى يحدث قريشا بما يستملحونه ، قال أبو سفيان: إنى لأرى بعض ما يقول حقا ، فقال أبو جهل كلاّ فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(ومنهم من يستمع إليك) أى ومن أولئك الكافرين فريق يستمع إليك إذا أنت تلوت القرآن داعيا إلى توحيد الله مبشرا منذرا .

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى والحال أنا قد جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه وفهمه ، وفى آذانهم ثقلا أو صمما يحول دون سماعه بقصد التدبر والوصول إلى مافيه من الهداية والرشد .

وفى هذا تشبيه للحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية ، فالقلب الذى لايفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذى وضع عليه الغطاء فلا يدخل فيه شىء ، والآذان التى لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو بالصمم ، فسمعها وعدمه سواء .

بيان هذا — أن الله جلت قدرته جعل التقليد الذى يختاره الإنسان لنفسه مانعا من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق ، فهو لايستمع إلى متكلم ليميز الحق من الباطل ، وإذا وصل إلى سمعه ما هو مخالف لما يدين به لا يتدبره ولا يراه جديرا بالموازنة بينه وبين ما عنده من عقيدة أو رأى ليختار أقربهما إلى الصحة

وأجدرهما بالصدق ، وأكثرهما هداية ورشادا ؛ وأبعثهما إلى اطمئنان النفس الموصل لها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

(وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك لا يؤمنوا بها ، إذ هم لا يفقهونها ولا يدركون المراد منها لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ فحظهم كحظ الصم من سماع أصوات البشر .

(حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) أى حتى إذا جاءوك مجادلين لك فى دعوتك قالوا : ماهذا إلا أساطير الأولين وخرافاتهم .

ذاك أنهم لم يعقلوا مما فى القرآن من أنباء الغيب إلا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها من الأنباء والخرافات ، فلا علم فيها ولا فائدة منها ، وهذه حال من يسمع جَرْسَ الكلام ولا يتدبره ولا يفقه أسراره ، أو من ينظر إلى الشىء نظرة جملية لا يستنبط منها علما ولا يستفيد منها عقيدة ورأيا ، وما مثلهما إلا مثل من يشاهد ألعاب الصور المتحركة (السينما) مفسرة بلغة هو لا يعرفها ، فكل همه مما يرى من المناظر والكتابة لا يعدو التسلية وشغل الوقت .

فلو عقل هؤلاء قصص القرآن وتدبروا معانيها لكان لهم من ذلك آيات بينات تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعبر ومواعظ ونذر تبين سنن الله فى خلقه مع الأقوام الذين كذبوا الرسل وكان عاقبة أمرهم الدمار والنكال .

(وهم ينهون عنه وينأون عنه) أى وأولئك المشركون المعاندون للنبى الجاحدون لنبوته ، لا يقنعون بتكذيبهم له وعده حديث خرافة ، بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به ، ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لاشمئزازهم ونفورهم منه فيكونون ناهين منتهين .

(وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) أى وما يهلكون إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه وهو عذاب الضلال والإضلال ، وما يشعرون بذلك بل يظنون أنهم يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا من معجزات القرآن و إخباره بالغيب ؛ فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوته صلى الله عليه وسلم ، بعضهم فى نقم خاصة ، و بعضهم فى وقعة بدر وغيرها من الغزوات .

و يتبع هذا الهلاك الدنيوى هلاك الآخرة ، واللفظ يشملهما معا .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

يقال وقف الرجل على الأرض وقوفا ، ووقف على الشىء : عرفه وتبينه ، ووقف نفسه على كذا وقفا : حبسها كوقف العقار على الفقراء .

المعنى الجملى

بين الله فى الآية السابقة حال طائفة من المشركين تلقى السمع مصغية للقرآن لكن لا يدخل القلب شىء مما تسمع ، لما عليه من أكنة التقليد ، والاستنكار لكل شىء جديد ، فهم يستمعون ولا يسمعون ؛ و بين فى هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم يوم القيامة وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالح العمل ويكونوا من المؤمنين حقا ، ثم كذبهم فيما يقولون وأنهم لو ردوا لعادوا لما كانوا فيه لفقد استعدادهم للايمان ، وأن حالهم بلغ مبلغا لا يؤثر فيه كشف الغطاء ورؤية الفزع والأهوال .

الإيضاح

(ولو ترى إذ وقفوا على النار) أى ولو ترى أيها السامع ما يحل بأولئك المكذبين من الفزع والهول حين تقفهم ملائكة العذاب على النار مشرفين عليها من أرض الموقف ، وندمهم على كفرهم وحسرتهم على ما فرط منهم فى جنب الله وتمنيهم مالا سبيل للحصول عليه ، لرأيت مالا يحيط به الوصف ولا يقدر على التعبير عنه اللسان ولا يبلغ تصويره البيان ، ولو أوتى المتكلم بلاغة سحبان .

(فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) أى ويقول هؤلاء المشركون بربهم إذ حبسوا على النار : ليتنا نرد إلى الدنيا حتى نتوب ونعمل صالحا ولا نكذب بآيات الله وحججه التى نصبها دلالة على وحدانيته وصدق رسله ، بل نكون من المصدقين به وبرسله ومن المتبعين لأمره ونهيه .

والخلاصة — إنهم حين عاينوا الشدائد والأهوال بسبب تقصيرهم تمنوا الرد إلى الدنيا ليسعوا فى إزالة ذلك التقصير ويتركوا التكذيب بالآيات ويعملوا صالح العمل.

وتمنى هذا الرد إلى الدنيا بناء على جهلهم بأنه محال ، أو أنهم مع علمهم باستحالته لامانع من تمنيه على سبيل التحسر ، لأنه يصح أن يتمنى مالا يكون .

(بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) أى بدا لهم سوء عاقبة ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا وتمنوا الخلاص منه بالرد إلى الدنيا وترك ما أفضى إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان ، كما يتمنى الموت من أنهكه المرض وأضناه الداء العضال ، لأنه ينقذه من الآلام لا لأنه محبوب فى نفسه ولا مرجو لذاته .

بيان هذا أنه إذا جاء ذلك اليوم الذى تبلى فيه السرائر وتنكشف جميع الحقائق، وتشهد على الناس الأعضاء والجوارح ، وتتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية

فى كتابه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها كما تمثل الوقائع مصورة فى آلة الصور المتحركة (فلم السينما) .

فكل أحد يظهر له فى الآخرة ما كان خفيا عنه من خير فى نفسه وشر « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » أى فهى لا تخفى على أنفسكم فضلا عن خفائها على ربكم .

والخلاصة — إنه تعالى بين لنا أن تمنى أولئك الكفار لما تمنوا لا يدل على تبدل حقيقتهم ، بل بدا لهم ما كان خفيا عنهم من أحوالهم بإخفائهم إياه عن الناس أو عنهم « وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » فتمنوا الخروج مما حاق بهم ، ولكن الحقيقة لا تتغير ، وإنما يكون للنفوس أطوار وأحوال .

(ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصى ، فإن ذلك من أنفسهم ثابت فيها لخبث طينتهم وسوء استعدادهم ، ومن ثم لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوا ولا سوء ما رأوا .

(وإنهم لكاذبون) فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله ، وبالكون من المؤمنين بالله ورسوله ، فلو ردوا إلى الدنيا لرد المعاند المستكبر منهم مشتملا بكبره وعناده ، والمنافق مرتدا بمكره ونفاقه ، والشهوانى ملوثا بشهواته القابضة على زمامه .

وأما ما ظهر لهم إذ وقفوا على النار من حقيقة ما جاء به الرسول ، فما مثله إلا مثل ما يلوح لهم فى الدنيا من الآيات والعبر ، فهم يكابرون فيها أنفسهم ، ويغالطون عقلهم ووجدانهم .

ألا ترى شارب الخمر والمقامر يريان ما حل بغيرهما من الشقاء فيظهران الندم على ما فرط منهما ويتوبان ويعزمان على ألا يعودا إلى مثل ما عملا ، ثم لا يلبثان أن يرجعا سيرتهما الأولى خضوعا لما اعتادا وألفا ، وترجيحا للذة العاجلة على المنفعة الآجلة .

ومن هذا يستبين لك أن الطريقة المثلى لتعويد الناس الفضيلة ، هى حملهم عليها بالعمل والمران وحسن التلقين والتعليم كما يمرن الأطفال فى الصغر والرجال على أعمال الجندية ، ولا ينبغى أن يسمح للأحداث بإطاعة شهواتهم واتباع أهوائهم ، ظنا أن هذا يعوّدهم الحرية والاستقلال فيهديهم ذلك إلى الحق والفضيلة ، إذ قلما يوجد من يتبع شهواته فى الصغر ثم يعدل عن ذلك فى الكبر بعد أن يصير طبيعة وعادة .

فما مثل تربية الأطفال على الآداب والفضائل إلا مثل تربيتهم على النظافة ومراعاة القوانين الصحية فإنا نعودهم ذلك فى الصغر ثم هم يعرفون فوائد ذلك فى الكبر.

(وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) أى لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر وسيئ الأعمال ولأنكروا البعث والحساب والجزاء ، وقالوا لا ثواب ولا عقاب فى الدار الآخرة .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (٣٢) .

شرح المفردات

الساعة فى اللغة : الزمن القصير المعين ، ثم أطلق على الوقت الذى ينقضى به أجل هذه الحياة ويخرب العالم وما يتبع ذلك من البعث والحساب ، سمى بذلك لسرعة

الحساب فيه كأنه ساعة ، و بغتة ، فجأة : يقال بغته إذا هجم عليه من غير شعور ، والحسرة الغم على ما فات والندم عليه كأنّ المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكب ، والتفريط: التقصير ممن قدر على الجد والتشمير ، من الفرط وهو السبق ومنه الفارط والفرْط وهو الذى يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم ، والأوزار جمع وزر (بالكسر) وهو الحمل الثقيل ، ووزره (بزنة وعده) حمله على ظهره ثم أطلق فى الدين على الإثم والذنب كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذى يثقل الظهر ، واللعب: الفعل الذى لا يقصد به فاعله مقصدا صحيحا من تحصيل منفعة أو دفع مضرة كأفعال الصبيان التى يتلذذون بها ، واللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وقد يسمى كل مابه استمتاع لهوا ، ويقال لهوت بالشيء ألهو به لهوا وتلهيت به إذا تشاغلت وغفلت به عن غيره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة إنكارهم فى الدنيا للبعث والجزاء ـ بين هنا حالهم فى الآخرة يوم يكشف عنهم الغطاء فيتحسرون و يندمون على تفريطهم السابق وغرورهم بذلك المتاع الزائل ، ثم أردفه بذكر حقيقة الدنيا مقابلا بينها و بين الآخرة وموازنا بين حاليهما لدى المتقين والعاصين .

الإيضاح

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) أى ولو ترى هؤلاء الضالين المكذبين حين تقفهم الملائكة فى الموقف الذى يحاسبهم فيه ربهم و يمسكونهم إلى أن يحكم الله فيهم بما يشاء ـ لهالك أمرهم واستبشعت منظرهم ورأيت مالا يحيط به وصف ، وجعلهم موقوفين على ربهم لأن من تقفهم الملائكة وتحبسهم فى موقف الحساب امتثالا لأمر الله فيهم كما قال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » يكون أمرهم مقصورا على الله لايتصرف فيه غيره : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(قال أليس هذا بالحق) أى حينئذ يقول لهم ربهم : أليس هذا الذى أنتم فيه من البعث هو الحق الذى لاشك فيه ولا ريب ؟ لا باطل كما كنتم تزعمون .

(قالوا بلى وربنا) أى قالوا بلى هو حق لا يحوم حوله الباطل ، وقد أكدوا اعترافهم باليمين فشهدوا بذلك على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) عبر بالذوق عن ألم العذاب للإشارة إلى أنهم يجدونه وجدان الذائق فى قوة الإحساس به أى إذا كان الأمر كما اعترفتم فذوقوا العذاب الذى كنتم به تكذبون بسبب كفركم الذى دأبتم عليه واتخذتموه شعارا لكم لا تتركونه .

(قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى قد خسر أولئك الكفار الذين كذبوا بما وعد الله به كل ما ربحه وفاز به المؤمنون من ثمرات الإيمان فى الدنيا كرضا الله وشكره حين النعمة ، والصبر والعزاء وقت المصيبة ، ومن ثمرات الإيمان فى الآخرة من الحساب اليسير والثواب العظيم ، والرضوان الأكبر والنعيم المقيم ، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وما سبب هذا إلا أن إنكار البعث والجزاء يفسد الفطرة البشرية ويفضى إلى الشرور والآثام ، فإن الاعتقاد بأن لا حياة بعد هذه الحياة يجعل همّ الكافرين محصورا فى الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية كالجاه والرياسة والعلو فى الأرض ولو بالباطل ، ومن كانوا كذلك كانوا شرا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضا لا يصدهم عن الشر إلا العجز ولا تحكم بينهم إلا القوة .

وشاهدنا على ذلك أن أرقى أهل الأرض فى الحضارة والعلوم والفلسفة هم الذين يقوّضون صروح المدنية بمدافعهم ودباباتهم وطياراتهم وبكل ما أوتوا من فن واختراع ، ويهلكون الحرث والنسل ويخربون العامر من المدن ودور الصناعات بمنتهى القسوة والشدة ، ويهلكون ملايين الأنفس ما بين قتيل وجريح دون أن تستشعر قلوبهم

عاطفة رحمة ولا رأفة ، ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء لما انتهوا فى الطغيان إلى هذا الحد الذى نراه الآن .

(حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) أى كذبوا إلى أن جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وقد ورد فى الكتاب والسنة أن الله تعالى أخفى علمها عن كل أحد حتى الرسل والملائكة .

(قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) أى قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وأصروا على هذا التكذيب حتى إذا جاءتهم منيتهم وهى بالنسبة إليهم مبدأ الساعة ومقدمات القيامة ، مفاجئة لهم من حيث لم يكونوا ينتظرونها ولا يعدون العدة لمجيئها ، قالوا ياحسرتنا على تفريطنا فى الحياة الدنيا التى كنا نزعم أن لا حياة بعدها .

(وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) أى يحملون ذنوبهم وخطاياهم كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وفى ذلك إيماء إلى أن عذابهم ليس مقصورا على الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال ، وإشارة إلى أن تلك الحسرة من الشدة والهول بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من صنوف العقوبات .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أن الأعمال القبيحة تمثل بصورة رجل قبيح يحمله صاحبها يوم القيامة ، والصالحة بصورة رجل حسن تحمل صاحبها يوم القيامة .

والخلاصة — إنهم ينادون الحسرة التى أحاطت بهم أسبابها وهم فى أسوإ حال بما يحملون من أوزارهم على ظهورهم .

وقد بين الله تعالى سوء تلك الحال التى تلابسهم حينما يلهجون بذلك المقال فقال :

(ألا ساء ما يزرون) أى ما أسوأ تلك الأثقال التى يحملونها يوم القيامة على ظهورهم .

(وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى وما هذه الحياة الدنيا التى قال الكفار إنه لاحياة غيرها إلا لهو ولعب ، فهى دائرة بين عمل لا يفيد فى العاقبة كلعب الأطفال ، وعمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام ، ومن ثم قال بعض الحكماء : إن جميع لذات الدنيا سلبية إذ هى إزالة للآلام ، فلذة الطعام فى إزالة ألم الجوع ، و بقدر هذا الألم تعظم اللذة فى إزالته ، ولذة شرب الماء هى إزالة العطش وهكذا .

وفى الآية وجه آخر ، وهو أن متاع هذه الدنيا متاع قليل ، قصير الأجل لاينبغى أن يغتر به العاقل، فما هو إلا كلعب الأطفال قصير المدة ، فإن الطفل سريع الملل لكل ما يقدم إليه من أصناف اللعب ، أو أن زمن الطفولة قصير كله غفلة ، أو كلهو المهموم فى قصر مدته ، على كونه غير مقصود لذاته .

(وللدار الآخرة خير للذين يتقون) الكفر والمعاصى لخلو لذاتها من المضار والآلام وسلامتها من التقضى والانصرام ، من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذى لاحظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذى هو من قبيل اللعب فى قصر مدته وعدم فائدته ، أو من قبيل اللهو فى كونه دفعا لألم الهم والكدر .

والخلاصة — إن نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا ، فالبدنى منه أعلى وأكمل من نعيم الدنيا فى ذاته وفى دوامه وثباته وفى كونه إيجابيا لا سلبيا ، وفى كونه غير مشوب ولا منغّص بشىء من الآلام ، وفى كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقذار ، والروحانى منه كلقاء الله ورضوانه وكمال معرفته يجلّ عنه الوصف والتحديد ولا شبيه له فى نعيم الدنيا .

(أفلا تعقلون) أى أتغفلون عن هذا فلا تعقلون أن الحياة الدنيا لعب ولهو وأنتم ترون من يموت ومن تنوبه النوائب ، وتفجعه الفواجع ، ففى ذلك مزدجر عن الركون إليها واستعباد النفوس لها ، ودليل على أن لها مدبرا يلزم الخلق عبادته وعدم إشراك غيره معه فى ذلك التدبير والنظام و إخلاص العبادة والطاعة له .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) .

شرح المفردات

الحزن: ألم يحل بالنفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب ، أو حدوث مكروه، ولا سبيل لعلاجه إلا التسلى والتأسى كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن أسلى النفس عنه بالتأسى

وكذّبه: رماه بالكذب، والجحود والجحد: نفى ما فى القلب إثباته أو إثبات ما فى القلب نفيه ، ويقال جحده حقه وبحقه ، وكلمات الله : هى وعده ووعيده ، ومن ذلك وعده للرسل بالنصر ، ووعيده لأعدائهم بالغلب والخذلان كقوله : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » والنبأ : الخبر ذو الشأن العظيم ، وكبر على فلان الأمر أى عظم عنده وشق عليه وقعه، والإعراض : التولى والانصراف عن الشىء رغبة عنه أو احتقارا له ، واستطعت الشىء : صار فى طوعك منقادا لك باستيفاء الأسباب التى تمكنك من فعله ، والابتغاء : طلب ما فى طلبه كلفة ومشقة من البغى

وهو تجاوز الحد ، ويكون فى الخير كابتغاء رضوان الله وهو غاية الكمال ، وفى الشر كابتغاء الفتنة وهو غاية الضلال، والنفق: السرَب فى الأرض، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج، والسلم: المرقاة من السلامة ، لأنه الذى يسلمك إلى مصعدك ، وتذكيره أفصح من تأنيثه، والآية : المعجزة ، والجهل هنا : ضد العلم، وليس كل جهل عيبا لأن المخلوق لا يحيط بكل شىء علما ، وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه علمه ، ثم بجهل ما ينبغى له ويعد كمالا فى حقه إذا لم يكن معذورا فى جهله .

المعنى الجملى

نزلت هذه السورة فى دعوة مشركى مكة إلى الإسلام ومحاجتهم فى التوحيد والنبوة والبعث ، وكثر فيها حكاية أقوالهم بلفظ (وقالوا ـ وقالوا) نحو : « وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ـ وَقَالُوا إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » إلى نحو ذلك ـ وتلقين الرسول صلى الله عليه وسلم الرد عليهم مع إقامة الحجة والبرهان بلفظ (قل ـ قل) نحو : « قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ـ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

بعد هذا الحجاج كله ذكر فى هذه الآيات تأثير كفرهم فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم وحزنه مما يقولون فى نبوته وما يراه منهم من الإعراض عن دعوته ، وسلاه عن ذلك ببيان سنته سبحانه فى الرسل مع أقوامهم وأن كثيرا منهم كذبوا فصبروا حتى جاءهم النصر المبين وخذل الله أعداءهم الكافرين .

روى ابن جرير عن السدى أن الأخنس بن شُرَيق وأبا جهل التقيا ، فقال الأخنس لأبى جهل : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا أحد يسمع كلامك غيرى ، قال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله هذه الآية .

الإيضاح

(قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) القول الذى يحزنه منهم هو ما كانوا يقولونه فيه وفى دعوته ونبوته من تكذيب وطعن وتنفير للعرب منه .

يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وأسفك عليهم كما جاء فى قوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » وفى قوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدودهم . روى سفيان الثورى عن على قال : قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

وروى ابن أبى حاتم عن أبى يزيد المدنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابئ ؟ فقال والله إنى لأعلم إنه لنبى ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا ؟ وتلا أبو يزيد : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

والخلاصة — إنهم لا ينسبون النبى صلى الله عليه وسلم إلى افتراء الكذب ، ولا يجدونه كاذبا فى خبر يخبر به بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع ، وإنما يدعون أن ما جاء به من أخبار الغيب التى من أهمها البعث والجزاء كذب غير مطابق للواقع ، ولا يقتضى ذلك أن يكون هو الذى افتراه ؛ فإن التكذيب قد يكون للكلام دون المتكلم الناقل له .

وذكر الرازى فى نفى التكذيب مع إثبات الجحود أربعة أوجه :

(١) إنهم ما كانوا يكذبونه فى السر ولكنهم كانوا يكذبونه فى العلانية ويجحدون القرآن والنبوة .

(٢) إنهم لا يقولون له إنك كذاب لأنهم جربوه الدهر الطويل فلم يكذب فيه قط ، ولكنهم جحدوا صحة النبوة والرسالة واعتقدوا أنه تخيل أنه نبي وصدق ما تخيله فدعا إليه .

(٣) إنهم لما أصروا على التكذيب مع ظهور المعجزات القاهرة على وفق دعواه كان تكذيبهم تكذيبا لآيات الله المؤيدة له أو تكذيبا له سبحانه ، فكأن الله قال له إن القوم ما كذبوك ولكن كذبونى ، وذلك أن تكذيب الرسول كتكذيب المرسل المصدق له بتأييده على حد : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » .

(٤) إن المراد أنهم لا يخصونك بالتكذيب ، بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقا ويقولون فى كل معجزة إنها سحر ، فكأن الخلاصة إنهم لا يكذبونك على التعيين ولكن يكذبون جميع الأنبياء والرسل .

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) أى إن الرسل الذين أرسلوا قبلك ، قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم إلى أن نصر الله الرسل بالانتقام من أعدائهم المكذبين لهم .

ونظير هذه الآية قوله : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ » وقوله : « وإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ . . » الآية .

وفى الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بعد تسلية ، وإرشاد له إلى سننه تعالى فى الرسل والأمم ، وقد صرح بوجوب الصبر على هــــذا الإيذاء فى قوله : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وقوله : « واصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً » .

وقد دلت التجارب على أن التأسى يهون المصاب ويفيد شيئا من السلوى ، ومن

هذا تعلم حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية مع الأمر بالصبر المرة بعد المرة ، لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له صلى الله عليه وسلم من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما و بتذكره .

وفى الآية بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم مؤكدة للتسلية بأن الله سينصره على المكذبين الظالمين من قومه ، وعلى كل من يكذبه و يؤذيه من أمة الدعوة ، كما أن فيها إيماء إلى حسن عاقبة الصبر ، فمن كان أصبر كان حقيقا بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر .

(ولا مبدل لكلمات الله) أى إن ذلك النصر قد سبقت به كلمة الله ، فى مثل قوله : «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » وكلمات الله لا يمكن أن يبدلها مبدل ، فنصر الرسل حتم لابد منه والتبديل جعل شىء بدلا من شىء آخر ، وتبديل الكلمات والأقوال نوعان :

(١) تبديل ذاتها بجعل قول مكان قول وكلمة مكان أخرى ، ومن هذا قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ » .

(٢) تبديل مدلولها ومضمونها كمنع نفاذ الوعد والوعيد أو وقوعه على خلاف القول الذى سيق ، ثم أكد سبحانه عدم التبديل بقوله :

(ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أى ولقد جاءك ذلك الذى أشير إليه من خبر التكذيب والصبر والنصر من نبأ المرسلين الذى قصصناه عليك من قبل ، فقد روى أن سورة الأنعام نزلت بين سور الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبأ المرسلين بالتفصيل .

وكما وعد الله رسله بالنصر وعد المؤمنين به فى نحو قوله : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » وفى قوله « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

فما بالنا نرى كثيرا ممن يدّعون الإيمان فى هذا الزمان غير منصورين ، فلابد إذاً من أن يكونوا فى إيمانهم غير صادقين ، ولأهوائهم متبعين ، ولسننه فى أسباب النصر جاهلين، فالله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه ، بل ينصر المؤمن الصادق الذى يتحرى الحق والعدل فى حربه لا الظالم الباغى من خلقه ، والذى يقصد إعلاء كلمة الله ونصر دينه كما جاء فى قوله: « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقوله « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

(وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية) من الآيات التى اقترحوها عليك ليؤمنوا فأتهم بها .

ذاك أنهم كانوا يقترحون الآيات على النبى صلى الله عليه وسلم وكان يتمنى لو أتاه الله بعض ما طلبوا حرصا على هدايتهم ، وأسفا وحزنا على إصرارهم على غوايتهم ، لكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات ما يطلبون وفوق ما يطلبون .

والخلاصة : وإن كان إتيانهم بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم ويكشف شبهتهم فيؤمنون عن بينة وبرهان ، فإن استطعت أن تبتغى لنفسك نفقا تطلبه فى الأرض فتذهب فى أعماقها ، أو سلما فى جو السماء ترقى عليه إلى ما فوقها ، فتأتيهم بآية مما اقترحوا عليك فأت بما يدخل طوع قدرتك من ذلك ، كتفجير ينبوع لهم من الأرض أو تنزيل كتاب تحمله من السماء وقد كانوا طلبوا ذلك كما حكى الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا إلى قوله — أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ » وقد أمره الله أن يجيبهم عن ذلك بقوله عقب هذا : « قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ » أى وليس ذلك فى قدرة البشر وإن كان رسولا فالرسل لا يقدرون على شىء مما يعجز عنه البشر ولا يستطيع إيجاده غير الخالق .

وخلاصة ذلك — إنك لن تستطيع الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا ابتغاء السبل إليها فى الأرض ولا فى السماء ، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك لعلمه أنه لن يكون سببا لما تحبه من هدايتهم .

(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أى ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه ، إما بأن يجعل الإيمان ضروريا لهم كالملائكة ، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير فقط لا متفاوتى الاستعداد مختلفى الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات ، ولـكنه شاء أن يجعلهم على ماهم عليه من الاختلاف والتفاوت وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار .

(فلا تكونن من الجاهلين) أى إذا عرفت سننه تعالى فى خلق الإنسان وأنه لا تبديل لخلق الله ، فلا تكونن من الجاهلين لسننه فى ذلك ، فتتمنى ما تراه حسنا نافعا وإن كان حصوله ممتنعا لـكونه مخالفا لتلك السنن التى اقتضتها الحـكمة الإلهية .

وخلاصة ذلك — لا تكوننّ بالحرص على إسلامهم والميل إلى الإتيان بمقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى فى خلقه .

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

أجاب الدعوة : إذا أتى مادعى إليه من قول أوعمل ، وأجاب الداعى واستجابه له واستجاب دعاءه : إذا لباه وقام بما دعاه إليه .

والقرآن الـكريم استعمل أفعال الإجابة فى المواضع التى تدل على حصول

المسئول كله بالفعل دفعة واحدة ، واستعمل أفعال الاستجابة فى المواضع المفيدة لحصول المسئول بالتهيؤ والاستعداد كقوله : « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » إذ الآية نزلت فى وقعة حمراء الأسد بعد وقعة أحد فالمراد أنهم تهيئوا للقتال أو المفيدة للدلالة على حدوث الفعل بالتدريج كاستجابة دعوة الدين التى تبدأ بالنطق بالشهادتين ثم بباقى أعماله بالتدريج .

والاستجابة من الله يعبر بها فى الأمور التى تقع فى المستقبل ويكون من شأنها أن تقع بالتدريج كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار بالمغفرة وتكفير السيئات وإيتاء ما وعد به المؤمنين فى الآخرة كما قال (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ) الآية .

والسمع والسماع : يطلق على إدراك الصوت ، وعلى فهم ما يسمع من الكلام وهو ثمرة السمع ، وعلى قبول ما يفهم والعمل به وهذا ثمرة الثمرة ، والمراد بالموتى هنا : الكفار الراسخون فى الكفر المطبوع على قلوبهم الميئوس من سماعهم سماع تدبر تتبعه الاستجابة للداعى ، والبعث : لغة إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثت البعير أى أثرته من مبركه وسيرته إلى المرعى ونحوه ، ولولا : كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، والآية المعجزة المخالفة لسنن الله فى خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى ، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك ، ولا أن يلجئهم إلجاء بالآيات التى تقسرهم على ذلك ، بل اقتضت حكمته أن يكون البشر متفاوتين فى الاستعداد مختارين فى تصرفاتهم وأعمالهم ، ومنهم من يختار الهدى على الضلال ، ومنهم من يستحب العمى على الهدى .

ذكر هنا أن الأولين هم الذين ينظرون فى الآيات ويفقهون ما يسمعون من الحجج والبينات ، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون ، فهم والأموات سواء .

الإيضاح

(إنما يستجيب الذين يسمعون) أى إنما يستجيب لله ولرسوله الذين يسمعون كلام الله سماع فهم وتدبر فيعقلون الآيات ويذعنون لما عرفوا بها من الحق لسلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ، دون الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ؛ كالمقلدين الذين لا يفكرون فى الأشياء بعقولهم ، ودون الذين قالوا سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين ، فهؤلاء وهؤلاء من موتى القلوب وأبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون .

(والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) أى والذين لا ترجى استجابتهم لأنهم كالموتى لا يسمعون السماع النافع ، يترك أمرهم إلى الله فهو الذى يبعثهم بعد موتهم ، ويرسلهم إلى موقف الحساب فينالون ما يستحقون على كفرهم وسيء أعمالهم ، فلا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إذ ليس فى استطاعتك هدايتهم ولا إرجاعهم إلى محجة الرشاد .

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه) أى وقال الظالمون لأنفسهم الذين يجحدون بآيات ربهم ويعاندون رسوله إليهم : هلا أنزل عليه آية من ربه من الآيات التى اقترحناها عليه وجعلناها شرطا لإيماننا به .

(قل إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى قل لهم أيها الرسول إن الله تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا إذا اقتضت الحكمة تنزيلها لا إذا تعلقت شهواتهم بتعجيز الرسول بطلبها ، فقد مضت سنة الله بأن إجابة المعاندين إلى ما اقترحوا لم تكن سببا للهداية فى أمة من الأمم ، بل كانت سببا فى عقاب المعاجزين للرسل بعذاب الاستئصال ، وتنزيل الآية لا يكون خيرا لهم بل هو شرلهم ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئا من حكم الله تعالى فى أفعاله ولا من سننه فى خلقه .

والخلاصة — إن طلبهم للآية أو الآيات مع وجود هذه الآيات البينات إنما هو محاولة تعجيز الرسول لا أنه هو الدليل الذى يوصلهم إلى صدقه .

يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » وقوله : « وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) .

شرح المفردات

الدابة : كل ما يدب على الأرض من الحيوان والدب والدبيب المشى الخفيف والطائر : كل ذى جناح يسبح فى الهواء وجمعه طير كرا كب وركب ، والأمم واحدها أمة : وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد أو صفات وأفعال واحدة ، والتفريط فى الأمر التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت ، يقال فرّطه وفرّط فيه ، والكتاب هنا : هو اللوح المحفوظ ، وقيل القرآن ، والحشر : الجمع والسوق.

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أن الله قادر على أن ينزل الآيات إذا رأى من الحكمة والمصلحة إنزالها ، ولا ينزلها للتشهى والهوى كما يراه المقترحون من أولئك الضالين المكذبين ـ ذكر ما هو كالدليل على ذلك ، فأرشد إلى عموم قدرته تعالى وشمول علمه وتدبيره ، وأن كل ما يدب على وجه الأرض أو يطير فى الهواء فهو مشمول بفضل الله ورحمته وإحسانه ، فلو كان فى إظهار هذه المعجزات مصلحة

للمكلفين لفعلها ولا متنع أن يبخل بها ، إذ أنكم ترون أنه لم يبخل على شيء من الحيوان بمنافعها ومصالحها .

الإيضاح

(وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) أى لا يوجد نوع من أنواع الأحياء التى تدب على الأرض ولا من أنواع الطير التى تسبح فى الهواء إلا وهى أمم مماثلة لكم أيها الناس؛ وقد أثبت الأخصائيون الباحثون فى طباع الحيوان الذين تفرغوا لدرس غرائزها وأعمالها أن النمل مثلا يغزو بعضه بعضا وأن المنتصر يسترقّ المنكسر ويسخره فى حمل قوته و بناء قراه ، إلى نحو أولئك من الأعمال التى تخصه ؛ وقد حرصت الأمم المتدينة على تحريم اصطياد بعض أنواع الحيوان ، فإذا رأت بعض ما يصاد من الطير وغيرها قلّ فى بلادها وخشى انقراضه منها حرمت صيده .

وخص دواب الأرض بالذكر لأنها هى التى يراها المخاطبون عامة ويدركون فيها معنى المماثلة ، دون دواب الأجرام السماوية القابلة للحياة الحيوانية التى أعلمنا الله بوجودها فى قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » وهذا من أخبار الغيب التى دل العلم الحديث على صدقها ؛ فقد أثبت الباحثون من علماء الفلك أن بعض الكواكب كالمريخ فيه ماء ونبات فلا بد أن يكون فيه أنواع من الحيوان ، بل فيه أمارات على وجود عالم اجتماعى صناعى كالإنسان، منها مايرى على سطحه بالمرقب (التلسكوب) من جداول منظمة وخلجان وجبال ووديان إلى نحو أولئك .

وهذه الآية الكريمة ونحوها ترشدنا إلى البحث فى طباع الأحياء لنزداد علما بسنن الله وأسراره فى خلقه ونزداد بآياته فيها إيمانا وحكمة وكمالا وعلما ونعتبر بحال المكذبين بها الذين لم يستفيدوا مما فضلهم الله به على الحيوان فكانوا أضل من جميع أنواعه التى لا تجنى على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه .

(ما فرطنا فى الكتاب من شىء) فسر ابن عباس الكتاب هنا بأم الكتاب : وهو اللوح المحفوظ ، وهو خلق من عالم الغيب أثبت الله تعالى فيه مقادير الخلق ما كان منها وما يكون على حسب السنن الإلهية ، وقيل الكتاب هنا علم الله المحيط بكل شىء ، شبه بالكتاب لكونه ثابتا لا ينسى ، وقيل هو القرآن أى ما تركنا فى القرآن شيئا من ضروب الهداية التى ترسل من أجلها الرسل إلا بيناه فيه فقد ذكرت فيه أصول الدين وأحكامه وحكمها والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية التى سخرها الله للانسان .

قال الحافظ بن كثير : مافرطنا فى الكتاب من شىء أى الجميع علمهم عند الله لا ينسى واحدا من جميعها من رزقه سواء كان بريا أو بحريا كقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مفصح بأسمائها وأعدادها ونظامها وحاصر لحركاتها وسكناتها .

(ثم إلى ربهم يحشرون) أى ثم يبعث أولئك الأمم من الناس والحيوان يوم القيامة و يساقون مجتمعين .

وروى ابن جرير عن ابن عباس: أن المراد بحشر البهائم موتها كما ورد فى الحديث « من مات فقد قامت قيامته » .

(والذين كذبوا بآياتنا صم و بكم فى الظلمات) أى والكافرون الذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على وحدانيتنا وصدق ماجاء به رسولنا ــ تكذيب جحود واستكبار أو تكذيب جمود على تقاليد الآباء ــ صم لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع قبول ، و بكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم يتخبطون فى تلك الظلمات الحالكة ، ظلمة الوثنية ، وظلمة تقليد الجاهلية ، وظلمة الجهل والأمية .

(من يشإ الله يضلله) أى من تعلقت مشيئته بإضلاله يضلله كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى ، و إضلاله إياهم جاء على مقتضى سننه فى البشر ،

أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه وإن ظهر له أنه الحق ، وأن يعرض المقلد عن النظر فى الآيات والدلائل التى تنصب لبيان بطلانها وإثبات خلافها مادام مغرورا بها مُكْبِرًا لمن جرى من الآباء عليها .

(ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) أى ومن يشأ هدايته يجعله على طريق مستقيم هو طريق الحق الذى لا يضل سالكه ، بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله ، استعمالا يعرف به الحق ويعرف به الخير ، ويعمل به على حسب سننه تعالى فى الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد النفسية .

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) .

شرح المفردات

أرأيتكم أى أخبرونى ، وهو أسلوب يذكر للتعجيب والتنبيه إلى أن ما يذكر بعده غريب عجيب تقوم به الحجة على المخالف ، يكشف أى يزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء ، والبأساء : تطلق على الحرب والمشقة ، والبأس : الشدة

فى الحرب والعذاب الشديد والقوة والشجاعة ، والضراء : من الضر ضد النفع ، والتضرع : إظهار الضراعة والخضوع بتكلف ، والأخذ بالبأساء والضراء : إنزالها بهم ، مبلسون : أى متحسرون يائسون من النجاة ، دابر القوم : آخرهم الذى يكون فى أدبارهم ، وقطع دابرهم أى هلكوا واستئصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى للمشركين أن علمه محيط بما فى الأرض والسماء ، وأن عنايته تعم كل ما درج على الأرض أوطار فى الهواء ، وأن أمم الحيوان مشابهة لأمم الإنسان ، وقد أوتيت من الإلهام والمعرفة ما به تميز بين ما ينفعها وما يضرها .

أمر نبيه أن يوجه إليهم هـــذا السؤال مذكرا لهم بما أودع فى فطرتهم من توحيده عز اسمه ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم وقت الرخاء وارتفاع اللأواء حتى إذا جد الجد ونزل بهم ما لا يطاق حمله من الشدائد دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وضل عنهم ما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان . وما وضعت رمزا له من ملك أو إنسان .

الإيضاح

(قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين العادلين بالله الأوثان والأصنام ، أخبرونى إن أتاكم عذاب الله كالذى نزل بمن قبلكم من الأمم الذين كذبوا بالرسل ، فقد هلك بعضهم بريح صرصر عاتية ، و بعض آخر بالصاعقة ، أو بمياه الطوفان المغرقة ، أو جاءتكم الساعة بأهوالها وخزيها ونكالها و بعثتم لموقف الحساب — أغير الله فى هذه الأحوال تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء ؟ أم إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء ، إن كنتم صادقين فى دعواكم

ألوهية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ؟ فأخبرونى أغير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين ؟ ثم أجاب عن ذلك بقوله :

(بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) أى ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ــ بمستجيرين بشىء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد الهول بكم ، بل تدعونه وحده ، وبه تستغيثون ، وإليه تفزعون دون كل شىء غيره ، فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إن شاء ذلك ، لأنه وحده القادر على كل شىء ، والمالك لكل شىء دون ما تدعونه إلها من صنم أو وثن ، لأن الفزع إليه سبحانه عند الشدائد مما ركز فى فطرة البشر تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى الماء عند العطش ، فلا يذهب به ما يتلقى بالتعليم الباطل من مسائل الدين ، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله ويحبونهم كحب الله ، وما منشأ ذلك التقديس إلا اعتقاد القدرة على النفع والضر من غير طريق الأسباب المعروفة ، لكنهم عند الشدائد وتراكم الأهوال والكروب ينسونهم ويدعون الله وحده .

ولهذا الحب والتعظيم ثلاث درجات :

(١) أعرقها فى الجهل أن يعتقد فى شىء من المخلوقات أنه إله ينفع ويضر بذاته فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه .

(٢) المرتبة الوسطى أن يعتقد أن الإله قد حل فى بعض المخلوقات واتحد بها كما تحل الروح فى البدن وتدبره فيكونان شيئا واحدا .

(٣) أضعف درجاته أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شىء القادر على كل شىء المتصرف فى كل شىء ، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقربونهم إليه زلفى ويشفعون لهم عنده ، فهو لأجلهم يعطى ويمنع ويضر وينفع ، وهذه هى الدرجة التى

كان عليها مشركو قريش، فقد حكى الله عنهم : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » ـ « هٰؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » .

والتوحيد الخالص هو الإيمان بأن الله يفعل ما يشاء ويختار وأن جميع الخلق مسخرون لإرادته وتدبيره خاضعون لسننه وتقديره ، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئا إلا فى دائرة الأسباب التى شرعها لعباده ، وأن الوساطة بين الله وعباده محصورة فى تبليغ الرسول رسالته إليهم دون تصرفه فيهم ، وأن شفاعة الآخرة لله وحده يأذن بها إن شاء لمن شاء ممن ارتضى ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى لخاتم رسله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » وقوله : « قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ » وقوله : « قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ » .

وقد بين الله أن تلك الوساطة الشركية تنسى عند اشتداد الكروب والأهوال فقال : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقال : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) أى لقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فدعوهم إلى توحيدنا وعبادتنا فلم يستجيبوا لهم فأخذناهم أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء ليكون ذلك مفيدا لهم ، لأن سنتنا قد جرت بأنهم فى مثل هذه الحال يتضرعون ويجأرون بالدعاء إلى ربهم ، فالشدائد تربى النفوس وتهذب الأخلاق ، فترجع المغرورين عن غرورهم ، وتكف الفجار عن فجورهم ، فأخلق بها أن ترجع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر بل من دونهم من الأصنام والأوثان .

ولكن كثيرا من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيرها بأس ولا يحولها بؤس ، فلاتجدى معهم العبر والمواعظ ولا تؤثر فيهم صروف الدهر وغيره ، ومنهم أولئك الأمم الذين أرسل إليهم هؤلاء الأنبياء ، ومن ثم قال تعالى :

«فلولا إذجاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » أى فهلا تضرعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءتهم مقدمات العذاب وبوادره وحذروا عواقبه وأواخره لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم .

ولكن قلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة فلم تؤثر فيهم النذر ، وزين لهم الشيطان ماهم عليه من الشرك والفجور ، ووسوس إليهم بأن يثبتوا على ما كان عليه آباؤهم ولا ينقادوا إلى رجال منهم ضعاف الأحلام سفهاء العقول لا ميزة لهم عليهم بعقل راجح ولا فكر ثاقب .

(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) أى فلما أعرضوا عما أنذرهم به رسلهم وتركوا الاهتداء به وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم وأصروا على كفرهم وعنادهم وجمدوا على تقليد من قبلهم — بلوناهم بالحسنات وفتحنا عليهم أبواب الرزق ورخاء العيش وصحة الأجسام والأمن على الأنفس والأرواح ، فلم تربهم تلك النعم ولا شكروا الله على ما أنعم ، بل أفادتهم النعمة بطرا وكبرا كما أفادتهم الشدائد عتوا وقسوة .

والخلاصة — إنه تعالى سلط عليهم المكاره والشدائد ليعتبروا ويتعظوا ، فلما لم تُجْدِ معهم شيئا نقلهم إلى حال هى ضدها ففتح عليهم أبواب الخيرات وسهل لهم سبل الرزق والرخاء فلم ينتفعوا أيضا ، وما مثل هذا إلا مثل الأب المشفق على ولده يخاشنه تارة ويلاينه أخرى طلبا لصلاحه واستقامة حاله وإرجاعا له عن غيه وطغيانه .

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) أى حتى إذا ظنوا أن الذى أوتوا إنما هو باستحقاقهم ولم يزدهم ذلك إلا بطرا وغرورا ، أخذناهم بعذاب

الاستئصال حال كونهم مبغوتين ، إذ فاجأهم على غرة من غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب ، فإذا هم مبلسون أى يائسون من النجاة .

وفى الآية إيماء إلى أن البأساء والضراء وما يقابلهما من السراء والنعماء مما يتهذب بها من وفقهم الله للهداية وألهمهم الرشاد ، والاختبار أكبر شاهد على صدق هذه القضية ، فالشدائد مصلحة للفساد ومهذبة للنفوس ، والمؤمن أجدر الناس بالاستفادة من الحوادث . روى مسلم عن صهيب مرفوعا « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

وروى أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فلما نسوا ما ذكروا به الآية » .

وروى مالك عن الزهرى أنه قال : (فتحنا عليهم أبواب كل شىء) أى رخاء الدنيا ويسرها . وقال الحسن البصرى : من وسع الله عليه فلم ير أنه لم يمكر به فلا رأى له ، ومن قتر عليه فلم ير أنه لم ينظر له فلا رأى له ، ثم قرأ : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء) .

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والإصرار على الشرك وأعماله واستؤصلوا فلم يبق منهم أحد .

(والحمد لله رب العالمين) أى والثناء الكامل والشكر التام لله رب العالمين على إنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر وتحقيق ما وعدهم به من إهلاك المشركين و إراحة الأرض من شركهم وظلمهم .

وهذه الجملة إرشاد من الله لعباده المؤمنين بتذكيرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين وقطع دابر الظالمين المفسدين و إيماء إلى وجوب ذلك فى عاقبة كل أمر وخاتمة كل عمل كما قال تعالى فى وصف عباده المتقين : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

والخلاصة — إن فى الضراء والسراء عبرة وعظة للمتقين ، وعبرة ظاهرة أو باطنة للفائزين المفلحين .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) .

شرح المفردات

نصرف الآيات أى نكررها على وجوه مختلفة، ومنه تصريف الرياح، ويصدفون: يعرضون عن ذلك . والمس : اللمس باليد ، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوءه غالبا من ضر وشر وكبر ونصب وعذاب .

المعنى الجملى

هذا ضرب آخر من ضروب الدعوة إلى وجود الصانع القادر وتوحيده ، وإثبات الرسالة بوجه آخر غير ما تقدم من وجوه الاحتجاج .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت به

من التوحيد والهدى : أرأيتم ماذا يكون من أمركم مع آلهتكم الذين تدعونهم وترجون شفاعتهم - إن أصمكم الله تعالى فذهب بسمعكم ، وأعماكم فذهب بأبصاركم ، وختم على قلوبكم وطبع عليها ، فأصبحتم لا تسمعون قولا ، ولا تبصرون طريقا ، ولا تعقلون نفعا ولا ضرا ، ولا تدركون حقا ولا باطلا - من إله غير الله يأتيكم بما ذكر مما أخذه الله منكم ؟ أى لا إله غيره يقدر على إتيانكم بما سلب ، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد والأولياء آلهة لقدروا على ذلك ؛ وإن كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون فلماذا تدعونهم ، وما الدعاء إلا عبادة ، والعبادة لا تكون إلا للإله القدير ؟

(انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون) أى انظر كيف نتابع عليهم الحجج ونضرب لهم الأمثال والعبر - ونجعلها على وجوه شتى ليعتبروا ويتذكروا فينيبوا ويرجعوا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ويتجنبون التأمل فيها - ويلقونها وراء ظهورهم .

(قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) أى قل لهم أيها الرسول : أخبرونى عن شأنكم إن أتاكم عذاب الله الذى مضت سنة الله فى الأولين بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين مباغتا ومفاجئا لكم فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمارة تشعركم بقرب نزوله بكم ، أو أتاكم وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه بحيث ترون مبادئه ومقدماته بأبصاركم - هل يهلك الله به إلا القوم الظالمين منكم الذين أصروا على الشرك والعناد والجحود ، إذ قد مضت سنته تعالى فى مثل هذا العذاب أن ينجى منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين .

والخلاصة — إنه لا يهلك بهذا العذاب غيركم ، لظلمكم أنفسكم وجنايتكم عليها بما اخترتم لها من الشرك والفجور وعبادة من لا يستحق العبادة ، وترك عبادة من هو بها حقيق وجدير .

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أى وما نرسل المرسلين إلا ببشارة أهل الطاعة بالفوز بالجنة جزاء وفاقا على طاعتهم ، وبإنذار من أصرّ على الشرك والإفساد فى الأرض ، لتنذر إليه فيهلك إن هلك عن بينة .

(فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) أى فمن صدق من أرسلنا إليه من رسلنا وعمل صالحا فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالمكذبين الجاحدين ولا من عذاب الآخرة الذى أعده للكافرين ، ولاهم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم ، لأن الله يحفظهم من كل فزع وهول كما قال سبحانه : «لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » وكذلك هم لا يحزنون فى الدنيا كحزن المشركين فى شدته وطول مدته ، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح كموت ولد أو قريب أو فقد مال أو قلة نصير يكون حزنهم مقرونا بالصبر وحسن الأسوة فلا يضرهم فى أنفسهم ولا فى أبدانهم ، ولا يغير شيئا من أخلاقهم وعاداتهم ، فالإيمان يعصمهم من عنت البأساء و بطر النعماء ، مسترشدين بنحو قوله تعالى « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» .

(والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) أى والذين كذبوا بآياتنا التى أرسلنا بها الرسل يصيبهم العذاب فى الدنيا أحيانا عند الجحود والعناد ، وفى الآخرة على سبيل الدوام والاطراد ، جزاء كفرهم و إفسادهم ، وخروجهم عن أمر الله وطاعته ، وارتكابهم مناهيه ومحارمه .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ

الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) .

شرح المفردات

الخزائن واحدها خزينة أو خزانة : وهى ما يخزن فيها الشيء الذى يراد حفظه ومنع التصرف فيه : « وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » والغيب : ما غيب علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به ، وهو قسمان :

(١) غيب حقيقى : وهو ما غاب عن جميع الخلق حتى الملائكة وهو المعنىّ بقوله عز اسمه : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » .

(٢) غيب إضافى : وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض كالذى يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر .

أما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها فليس بداخل فى عموم الغيب الوارد فى كتاب الله .

وهذه الأسباب ضروب :

(١) ماهو علمى كالدلائل العقلية والعلمية ، فعلماء الرياضة يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثوانى قبل وقوعه بألوف الأعوام .

(٢) ماهو عملى كالبرق الأثيرى (التلغراف اللاسلكى) الذى يعلم به المرء ما يقع فى أقاصى البلاد من وراء البحار و بينه و بينها ألوف الأميال .

(٣) ماهو إدراكات نفسية خفية تصل إلى مرتبة العلم كالفراسة والإلهام ، وأكثر هـذا النوع هواجس تلوح للنفس ولا يجزم بها الإنسان إلا بعد وقوعها . والأعمى والبصير : هنا الضال والمهتدى ، والإنذار : العظة والتخويف ، الطرد : الإبعاد ، والغداة والغدوة كالبكرة : مابين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والعشى : آخر النهار أو من المغرب إلى العشاء . وحسابهم : أى حساب إيمانهم وأعمالهم الباطلة . وفتنا : أى ابتلينا واختبرنا . ومن بيننا : أى من دوننا . منّ الله عليهم : أى أنعم عليهم بنعم كثيرة .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات السالفة فى بيان أركان الدين وأصول العقائد، وهى: توحيد الله عز وجل ، ووظيفة الرسل عليهم السلام ، والجزاء على الأعمال يوم الحساب .

وذكر هنا وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه ، وأزال أوهام الناس فيها ، وأرشد إلى أمر الجزاء فى الآخرة وكون الأمر فيه لله تعالى وحده على وجه يزيد عقيدة التوحيد تقريرا وتأكيدا وبيانا وتفصيلا .

الإيضاح

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك) أى قل أيها الرسول الذى بعث كما بعث غيره من الرسل مبشرا من أجاب دعوته بحسن الثواب ، ومنذرا من لم يقبلها بسوء العقاب ، لهؤلاء المكذبين لك بغير علم يميزون به بين شئون الألوهية وحقيقة النبوة فيقترحون عليك من الآيات الكونية مايعلمون أنه ليس فى مقدور البشر . فهم إما أن يقولوه تعجيزا ، وإما أن يظنوا أن الإنسان لا يكون رسولا إلا إذا خرج من حقيقة البشرية وصار قادرا على ما لا يقدر عليه البشر ، وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر : لا أقول لكم عندى خزائن الله :

أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشئون المخلوقات . فكل هذا لله وحده يتصرف فيه بما يشاء فيعطى لعباده من خزائنه على حسب ما أوتى كل منهم من الاستعداد فى دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات ولا يقدر أحد أن يتجاوز ذلك إلى مالم يؤته ولم يصل إليه استعداده .

فالتصرف المطلق إنما هو لله القادر على كل شىء ، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلغ عنه أمر الدين قادرا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف فى المخلوقات بالأسباب فضلا عن التصرف بغير سبب مما طلبه المشركون منه وجعلوه شرطا للإيمان به كتفجير الينابيع والأنهار فى أرض مكة ، وإيجاد الجنات والبساتين فيها ، وإسقاط السماء عليهم كسفا ، والإتيان بالله والملائكة قبيلا .

فإن قال قائل : إن الله أثبت علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام كقوله فى سورة الجن: « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » فكيف أمره هنا أن يتنصل من ادعاء علم الغيب ؟ .

وجوابه — أن إظهار شىء خاص من عالم الغيب على يدى الرسل ـ لا يجعل ذلك داخلا فى علومهم الكسبية . فإن الوحى ضرب من العلم الضرورى يجده النبى فى نفسه حينما يظهره الله عليه ، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية للوصول إليه ، يؤيد ذلك ما جاء فى فترات الوحى فى السيرة النبوية ، وقد يكون توجه قلب الرسول إلى الله تعالى فى بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحى فى الحكم الذى طلب من ربه بيانه ـ يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » .

والخلاصة — إن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة ، كذلك لم يعطوا التصرف فى خزائن ملك الله ، فلم يمكّنهم مالم يمكّن البشر من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم ، ولا هو أعطاهم ذلك على سبيل الخصوصية .

وفى كل من الأمرين إيماء إلى التبرؤ من ادعاء الألوهية أو ادعاء شىء من صفات الإله القادر على كل شىء العليم بكل شىء ، و إشارة إلى جهل المشركين حقيقة الإلهية وحقيقة الرسالة ، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب ، والإخبار بما يكون فى الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات . فقد سألوه عن وقت الساعة ، وعن وقت نزول العذاب بهم ، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم .

و إذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك فأحْرِ بمن دونهم منزلة عند الله من القديسين والأولياء المقرّبين ألا يكون لهم ذلك ، فادعاؤه لهم جهل عظيم و إثم كبير ولا ينبغى التحدث به لا بين العامة ولا بين الخاصة . كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين بسنن الله فى الأكوان .

(إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) أى قل لهم ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه إلا وحى الله الذى يوحيه إلىَّ وتنزيله الذى ينزله علىّ ، فأمضى لوحيه وأعمل بأمره ، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة على صحة ما أقول وليس ذلك بالمنكر فى عقولكم ، ولا بالمستحيل كونه ووجوده ، فما وجه إنكاركم لذلك ؟ .

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهؤلاء المشركين المكذبين : هل يستوى أعمى البصيرة الضالّ عن الصراط المستقيم الذى دعوتكم إليه ، فلم يميز بين التوحيد والشرك ولا بين صفات الله وصفات البشر ، وذو البصيرة المهتدى إليه ، المستقيم فى سيره عليه بالحجة والبرهان حتى صار ذلك فى مرآة قلبه أوضح مما ترى العينان وتسمع الأذنان .

والخلاصة — إنهما لا يستويان ، كما أن أعمى العينين و بصيرهما لا يستويان .

(أفلا تتفكرون) فيما أذكر لكم من الحجج فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه ، وتميزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام ، وتعقلوا ما فى القرآن من ضروب الهداية والعرفان بذلك الأسلوب الرائع الذى لم تعهدوه من قبل ، فهل يكون ذلك فى مقدورى

وقد لبثت فيكم عمرا من قبل عاطلا من هذه المعرفة ، وتلك البلاغة الساحرة ، وذلك البيان الخلاب .

(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون) أى وأنذر بما يوحى إليك ـ المؤمنين بك الذين يخافون أهوال الحشر وشدة الحساب وما يتبع ذلك من الجزاء على الأعمال عند القدوم على الله فى ذلك اليوم الذى لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » يوم لا ولى ينصر ، ولا شفيع يدفع العذاب إن أريد النجاة منه ، بل أمر ذلك متوقف على مرضاة الله .

فهؤلاء المؤمنون هم الذين يرجى أن يتقوا الله اهتداء بهديك وخوفا من إنذارك ويتحروا ما يؤدى إلى مرضاته ، لا يصدهم عن ذلك اتكال على الأولياء ولا اعتماد على الشفعاء علما منهم أن الشفاعة لله جميعا : « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » .

كما أنهم يستيقنون أن نجاتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتزكيتهم لأنفسهم لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم أو شفاعة الشافعين لهم ، كما هو حال المشركين الذين جهلوا أن مدار السعادة فى الدنيا والآخرة مرتبط بتزكية النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها .

والآية بمعنى قوله تعالى : « إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ » .

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى أول النهار وآخره ، أو المراد عامة الأوقات إذ يقال هو يفعل كذا صباحا ومساء : إذا كان مداوما عليه .

والدعاء إما الصلاة وقد كان فى أول الإسلام صلاتان إحداهما فى الصباح والأخرى فى المساء ، و إما الأعم الشامل للدعاء الحقيقى والصلاة والقرآن المشتملين عليه .

وقوله يريدون وجهه : أى يدعون ربهم فى هذين الوقتين مريدين بهذا الدعاء ابتغاء مرضاته تعالى : أى يتوجهون إليه وحده مخلصين له الدين ، فلا يشركون معه أحدا ولا يرجون من غيره على الدعاء ثوابا . وهو كقوله : « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ولاَ شُكُورًا » .

روى أحمد وابن جرير والطبرانى فى جماعة آخرين عن عبد الله بن مسعود قال : « مرّ الملأ من قريش على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يامحمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك : فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فأنزل الله فيهم القرآن : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم — إلى قوله — أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عِكْرِمة قال : مشى عُتْبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وقرظة بن عمرو والحرث بن عامر فى أشراف الكفار من بنى عبد مناف إلى أبى طالب فقالوا له : لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا . (واحدها عسيف ، وهو الأجير) كان أعظم له فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه ، فذكر ذلك أبو طالب للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت يارسول الله حتى تنظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم . فأنزل الله : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم — إلى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

قال : وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبى حُذَيفة . وصُبَيْحا مولى أُسَيد ، ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلى وعمرو بن عبد

عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبى مرثد وأشباههم ، ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا » الآية . فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر فأنزل الله : « وإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا » الآية .

والعبرة من هذا أن أول أتباعه كانوا كأتباع من تقدمه من الرسل صلوات الله عليهم من الضعفاء والفقراء ، وأن أعداءه كأعدائهم هم المترفون من الرؤساء والسادة ، وأنهم كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ويذمونهم ويعدون أنفسهم معذورين بعدم رضاهم بمساواتهم ؛ بل قد اقترحوا على الرسل طردهم وإبعادهم كما فى هذه الآية وكما فى قوله فى سورة هود حاكيا قول الأشراف من قوم نوح عليه السلام : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ » وقوله لهم : « وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » .

(ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم) أى ما عليك شىء من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، كما أنه ليس عليهم شىء من أمر حسابك على أعمالك ، حتى يكون هذا أو ذاك سببا فى طردك إياهم بإساءتهم فى عملهم أو فى محاسبتك على عملك ، فإن الطرد جزاء والجزاء إنما يكون على سيئ الأعمال ولا يثبت ذلك إلا بالحساب . والمؤمنون ليسوا بعبيد للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم ، بل هى لله يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل وحسابهم عليه تعالى لا عليهم ، والرسل هداة مرشدون ، لا أرباب مسيطرون : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية ، فأَجْدِرْ بالناس ألا يكون لهم هذا الحق على أنبيائهم .

(فتكون من الظالمين) أى لا تطرد هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى فتكون بطردك إياهم فى زمرة الظالمين معدودا من جنسهم ، لأن الطرد لا يكون حقا

إلا على الإساءة فى الأعمال التى يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها ، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى تجرى فيه على صراط العدل ، فإن عملهم هو عبادة الله وحده ، فحسابهم وجزاؤهم عليه كما قال نوح عليه السلام : « إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ » .

والخلاصة — إن هذه الآية الكريمة أفادت :

(١) أن الرسول لا يملك التصرف فى الكون .

(٢) أنه لا يعلم الغيب .

(٣) أنه ليس بملَك .

(٤) أنه لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم .

(وكذلك فتنا بعضهم ببعض) أى ومثل ذلك الفَتْن أى الابتلاء والاختبار ، فتنا بعضهم ببعض : أى جعلنا على حسب سنتنا فى غرائز البشر وأخلاقهم — بعضهم فتنة لبعض تظهر به حقيقة حاله ، كما يظهر للصائغ حقيقة الذهب والفضة بفتنتهما بالنار .

(ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟) أى لتكون العاقبة أن يقول المفتونون من الأقوياء فى شأن الضعفاء من المؤمنين : أهؤلاء الصعاليك من العبيد والموالى والفقراء والمساكين خصهم الله بهذه النعمة العظيمة من جملتنا أو من مجموعنا ؟ .

والخلاصة — إن ذلك لن يكون لأنهم هم المفضلون عند الله بما آتاهم من غنى وثروة وجاه وقوة ، فلو كان هذا الدين خيرا لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء كما أعطاهم من قبل الجاه والثروة ، وقد حكى الله عنهم مثل هذا بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَاسَبَقُونَا إِلَيْهِ » ورد الله عليهم مقالتهم الدالة على العتوّ والاستكبار بقوله :

(أليس الله بأعلم بالشاكرين) أى إن المستحق لمنّ الله وزيادة نعمه إنما هو من يقدّرها قدرها ويعرف حق المنعم بها فيشكره عليها لا من سبق الإنعام عليه فكفر وبطر ، وعتا واستكبر .

وبهذا مضت سنة الله فى عباده ، ولولا هذا لكانت النعم خالدة لا تنزع ممن أوتيها وإن كفر بها ، وهل فتن أولئك الكبراء إلا بما حصل لهم من الغنى والقوة ؟ فظنوا جهلا منهم بسنة الله فى أمثالهم أنه تعالى ما أعطاهم ذلك إلا تكريما لذواتهم وتفضيلا لهم على غيرهم .

وفى الآية إيماء إلى أن ما اغتروا به من النعم لن يدوم ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذى صبروا عليه بل لابد أن تنعكس الحال فيسلب الأقوياء ما أعطوا من قوة ومال ، وتدول الدُّولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين فيكونوا هم الأئمة الوارثين « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » .

كذلك فيها إشارة إلى أن تركهم للايمان لم يكن إلا جحودا ناشئا عن الكبر والعلو فى الأرض لا عن حجة ولا شبهة ، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم .

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) .

شرح المفردات

السلام والسلامة : البراءة والعافية من الآفات والعيوب ، والسلام : من أسمائه تعالى يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص وعجز وفناء ، واستعمل السلام فى التحية بمعنى السلامة من كل ما يسوء ، وبمعنى تأمين المسلَّم عليه من كل أذى

يناله من المسلم فهو دليل المودة والصفاء ، وهو تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جل وعلا وملائكته الكرام ، ويحيي بها بعضهم بعضا ، وكتب : أوجب ، والجهالة : السفه والخفة التي تقابل الحكمة والروية ، وتستبين : تتضح وتظهر، يقال : استبنت الشيء وتبينته : أي عرفته بينا واضحا .

المعنى الجملي

بعد أن نهى الله نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته استمالة لكبراء المتكبرين من قومه وطمعا في إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته كما اقترحه بعض المشركين.

أمره بأن يلقى الذين يدخلون في الإسلام آنا بعد آن عن بينة وبرهان ، بالتحية والسلام والتدخير برحمة الله ومغفرته ، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين إما كفر جحود وعناد وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد، وكان يدخل في الإسلام الأفراد بعد الأفراد ، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم ، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم .

الإيضاح

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) أي وإذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابنا وحججنا ويقرون بذلك قولا وعملا سائلين عن ذنوبهم التي فرطت منهم ، هل لهم منها توبة فلا تؤيسهم منها وقل لهم سلام عليكم أي أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها .

(كتب ربكم على نفسه الرحمة) أي قل لهم أوجب الله على ذاته المقدسة تفضلا منه وإحسانا ، الرحمة بخلقه فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية ، وفيما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية — لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية .

ثم بين أصلا من أصول الدين في هذه الرحمة للمؤمنين فقال :

(أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) أى إن من عمل منكم عملا تسوء عاقبته للضرر الذى حرمه الله لأجله حال كونه ملتبسا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء كغضب شديد حمله على السب والضرب أو شهوة مغتلمة قادته إلى انتهاك عرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعرا بقبحه نادما عليه خائفا من عاقبته ، وأصلح عمله بأن أتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده ويذهب أثره من قلبه ، حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها وتصير أهلا للقرب من ربها — فشأنه تعالى فى معاملاته أنه واسع المغفرة والرحمة فيغفر له ما تاب عنه ويتغمده برحمته وإحسانه .

وقد بين الله فى هذه الآية من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ماهم أحوج إلى معرفته بنص الوحى وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين ، وبقية أنواعها يمكن أن يستدل عليها بالنظر فى الأنفس والآفاق ، وأمر نبيه بتبليغها لمن يدخلون فى الدين ليهتدوا بها حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط فى جنب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم ، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من إفساد الذنوب خوف أن تحيط بها خطيئتها : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » .

(وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) أى ومثل ذلك التفصيل البديع الواضح نفصل لك أدلتنا فى بيان الحقائق التى يهتدى بها أهل النظر والفكر لما فيها من العلم والحكمة والموعظة والعبرة ولتتضح لك وللمؤمنين طريق المجرمين إذ يعلم من هذا التفصيل أن ما خالفه هو سبيل المجرمين ، إذ الأشياء تعرف بأضدادها كما قيل : (وبضدها تتميز الأشياء) .

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ، قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ

رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَاعِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) .

شرح المفردات

النهى : الزجر عن الشيء بالقول نحو اجتنبت قول الزور ، والكف عنه بالفعل كما قال تعالى : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » والدعاء : النداء لطلب إيصال الخير أو دفع الضر ، ولا يكون عبادة إلا إذا كان فيما وراء الأسباب العادية التي سخرها الله للعباد وينالونها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها . والبينة : كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية أو الآيات الحسية ، ومن ذلك تسمية الشهادة بينة . والقصص : ذكر الخبر . أو تتبع الأثر ، والفصل : القضاء والحكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين ، ذكر هنا أنه نهى عن سلوك سبيلهم ، وسبيلهم هو عبادة غير الله ، وأن هذه العبادة إنما هي بمحض الهوى والتقليد ، لا سبيل الحجة والبرهان ، فهي جمادات وأحجار ينحتونها بأيديهم ويركبونها ثم يعبدونها .

الإيضاح

(قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) أي قل أيها الرسول لهؤلاء الداعين لك إلى الإشراك : إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثون بهم من دون الله أي غير الله من الملائكة والصالحين من عباده ، دع مادونهم من الأصنام والأوثان التي لا علم لها ولا عمل .

وهذا النهى شامل لنهى الله عنه فى كتابه الكريم فى كثير من الآيات ، ولأمر الله بضده وهو دعاؤه وحده ، ولنهى العقل والفطرة السليمة قبل إرسال الأنبياء .

(قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) أى قل لهم ما أتبعكم على ما تدعوننى إليه من هذه العبادة ولا فى غيرها من الأعمال لأنها مؤسسة على الهوى ، وليست على شىء من الحق والهدى ، فإن فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق وسرت على غير هدى ، فصرت ضالا مثلكم وخرجت من عداد المهتدين ، وفى هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية فى شىء .

(قل إنى على بينة من ربى) أى قل لهم أيها الرسول إنى فيما أخالفكم فيه على بينة من ربى أى على بيان قد تبينته وبرهان قد وضح لى من ربى بالوحى والعقل ، إذ القرآن بينة مشتملة على ضروب كثيرة من البينات العقلية والكونية التى يعجز الرسول عن الإتيان بمثلها .

(وكذبتم به) أى والحال أنكم كذبتم به أى بالقرآن الذى هو بينتى من ربى ومن عجيب أمركم أنكم تكذبون ببينة البينات ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال من أمركم لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد ، والتقليد براءة من الاستدلال ورضا بجهل الآباء والأجداد .

وفى الكلام حجة دامغة وبينة ناصعة على ما قبلها من نفى عبادته صلى الله عليه وسلم للذين يدعونهم من دون الله .

وبعد أن بين تكذيبهم به قفّى عليه برد شبهة تخطر عند ذلك بالبال ، وهى أن الله أنذرهم عذابا يحل بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم ، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم ، وقد استعجلوا النبى صلى الله عليه وسلم فكان عدم وقوع ذلك شبهة لهم على صدق القرآن ، إذ هم يجهلون سنة الله فى شئون الإنسان ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم :

(ماعندى ما تستعجلون به) أى ما الذى تستعجلون به من نقم الله وعذابه

بيدى ولا أنا على ذلك بقادر ، ولم أقل لكم إن الله فوض أمره إلىّ حتى تطالبونى به وتعدّون عدم إيقاعه حجة على تكذيبه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى هذا وفى غيره من التصرف فى شئون الأمم إلا لله وحده ، وله فى ذلك سنن حكيمة تجرى عليها أفعاله وأحكامه فلا يتقدم شىء منها عن ميقاته ولا يتأخر : « وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » .

(يقص الحق وهو خير الفاصلين) أى يقص على رسوله القصص الحق فى وعده ووعيده وجميع أخباره ، وهو خير الحاكمين فى كل أمر ، فهو لا يقع فى حكمه وقضائه حَيْف إلى أحد ولا جَوْر ، وهو النافذ حكمه فى كل شىء ، والمحيط علمه بكل شىء .

(قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب بقولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

لو أن عندى ما تستعجلون به بأن مكننى الله من التصرف فيه وجعله من قدرتى الكسبية ، لقضى الأمر بينى وبينكم فأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ، واقتصاصا من تكذيبكم ولتخلصت منكم سريعا لصدكم عن تبليغ دعوة ربى وصدكم الناس عنى ، وقد وعدنى ربى بنصر المؤمنين المصلحين وخذلان الكافرين المفسدين .

(والله أعلم بالظالمين) الذين لا رجاء فى رجوعهم عن الظلم إلى الإيمان والحق والعدل ، ومن ثم لم يجعل أمر عقابهم إلىّ ، بل جعله عنده ووقت له ميقاتا هو أعلم به ، ترونه بعيدا ويراه قريبا : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » .

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ، وَلاَ رَطْبٍ

وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) .

شرح المفردات

المفاتح واحدها مفتح : (بفتح الميم) وهو المخزن : (وبكسرها) هو المفتاح الذى تفتح به الأقفال، والبحر: كل مكان واسع حاو للكثير من الماء ، والبرّ: مايقابله، والتوفى: أخذ الشيء وافيا أى تاما كاملا ويقابله التوفية، وهو إعطاء الشيء تاما كاملا ، ويقال وفاه حقه فتوفاه منه قال تعالى : « وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ » ويقال توفاه واستوفاه : أحصى عدده ثم أطلق التوفى على الموت ، لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذا تاما ، وأطلق على النوم كما فى هذه الآية وفى آية الزمر ، والجرح : يطلق على العمل والكسب بالجوارح وعلى التأثير الدامى من السلاح ومافى معناه كالبراثن والأظفار والأنياب من سباع الطير والوحش ، وتسمى الخيل والأنعام المنتجة جوارح أيضا ، لأن نتاجها كسبها، والجرح كالكسب يطلق على الخير والشر ، والاجتراح فعل الشر خاصة فى قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ويبعثكم : يوقظكم من النوم ، ويقضى : ينفذ ، والأجل المسمى: هو مدة بقائه فى الدنيا . والحفظة : هم الكرام الكاتبون من الملائكة « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ » .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته ، وأن ما يستعجلونه من عذاب الله تعجيزا أو تهكما ليس عنده ، وإنما هو عند الله ، وقد قضت سنته أن يجعل لكل شىء أجلا وموعدا لا يتقدم ولا يتأخر ، وأن الله تعالى هو الذى يقضى الحق ويقصه على رسوله ــ ذكر هنا أن مفاتح الغيب عنده ، وأن التصرف فى الخلق بيده ، وأنه هو القاهر فوق عباده لا يشاركه أحد من رسله ولا من سواهم فى ذلك .

الإيضاح

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) أى إن خزائن الغيب عند الله وهو المتصرف فيها وحده ، وكذلك المفاتيح أى الوسائل التى يتوصل بها إلى علم الغيب هى عنده أيضا لا يعلمها علما ذاتيا إلا هو ، فهو الذى يحيط بها علما وسواه جاهل بذاته لا يعلم منها شيئا إلا بإعلامه عز وعلا ، فعلينا أن نفوض إليه إنجازه وعده لرسله بالنصر ، ووعيده لأعدائه بالعذاب والقهر ، وأن نجزم بأنه لا يخلف وعده رسله ، وإنما يؤخر تنفيذه إلى الأجل الذى اقتضته حكمته .

روى البخارى عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس » : « إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » وما حكاه الله عن عيسى عليه السلام من قوله : « وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ » وما قاله يوسف عليه السلام لصاحبى السجن : « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا »

داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب كما قال فى سورة الجن : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » . وجاء فى معنى الآية قوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُبِينٍ » .

وروى البخارى عن عمران بن حصين مرفوعا : « كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض » .

لهذا الحديث والآثار المروية اتفق علماء التفسير بالمأثور على تفسير الكتاب المبين وأم الكتاب والذكر فى نحو ما تقدم من الآيات - باللوح المحفوظ ، وهو شى أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته . فعلينا أن نؤمن بأنه شىء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه ؛ وأما دعوى أنه جرم مخصوص فى سماء معينة فما لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغى أن يدخل فى باب العقائد لدى المؤمنين .

وروى عن الحسن أن حكمة كتابة الله لمقادير الخلق تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب ، وزاد بعضهم حكمتين أخريين :

(١) اعتبار الملائكة عليهم السلام بموافقة المحْدَثات للمعلومات الإلهية .

(٢) عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق فى الكتاب ، ويؤيده ماروى البخارى عن أبى هريرة : « جف القلم بما أنت لاق » .

(ويعلم مافى البر والبحر) أى وعنده علم مالم يغب عنكم ، لأن ما فيهما ظاهر للعين يعلمه العباد ، وعلمه تعالى بما فيهما علم شهادة مقابل لعلم الغيب .

والخلاصة — إن عنده علم ما غاب عنكم مما لاتعلمونه ولن تعلموه مما استأثر الله بعلمه ، وعنده علم ما يعلمه جميعكم لا يخفى عليه شىء منه ، فعنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى وما تسقط ورقة من نجم أو شجر فى الصحارى والبرارى ، أو فى الأمصار والقرى إلا والله عليم بها .

(ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) أى وما تسقط من حبة بفعل الإنسان باختياره كالحب الذى يلقيه الزراع فى بطون الأرض يسترونه بالتراب فيحتجب عن نور النهار ، أو تذهب به النمل فى قراها وجحورها ، أو بغير فعل الإنسان كالذى يسقط من النبات فى الشقوق والأخاديد ، وما يسقط من الثمار رطبا ويابسا — إلا وهو فى كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ الذى كتب ذلك فيه وكتب عدده والوقت الذى يوجد فيه والذى يفنى فيه ، وهو مبين ، أى يُبين عن صحة ماهو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم ، وهذا هو الذى اختاره الزجاج لقوله فى الآية الأخرى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » .

واختار الرازى أن الكتاب المبين علم الله تعالى الذى يشبه المكتوب فى الصحف بثباته وعدم تغيره .

(وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى يتوفى أنفسكم حال نومكم بالليل أى يزيل إحساسها ويمنعها من التصرف فى الأبدان ، واقتصر على الليل وإن كان ذلك يقع فى النهار لأن الغالب أن يكون النوم فيه ، وفى معنى الآية قوله تعالى : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

(ويعلم ما جرحتم بالنهار) أى ويعلم جميع عملكم وكسبكم حين اليقظة ويكون معظم ذلك فى النهار سواء أكان خيرا أم شرا .

(ثم يبعثكم فيه) أى ثم إنه بعد توفيكم بالنوم يثيركم ويرسلكم منه فى النهار .

(ليقضى أجل مسمى) أى يوقظكم ويرسلكم لكسب أرزاقكم وأقواتكم ، ومناجاة إلهكم وخالقكم ، لأجل أن يقضى وينفذ الأجل المسمى الذى فى علمه تعالى لكل فرد منكم ، فإن لأعماركم آجالا مقدرة مكتوبة لابد من قضائها وإتمامها .

(ثم إليه مرجعكم) أى ثم إليه رجوعكم إذا انقضت آجالكم ومتم .

(ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم يخبركم بما كنتم تعملون فى حياتكم الدنيا ويجازيكم بذلك إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

والقادر على البعث من توفى النوم قادر على البعث من توفى الموت .

وفى ذكر الأجل المسمى والرجوع إلى الله تعالى لأجل الحساب والجزاء إيماء إلى تأييد ما تقدم من حكمة تأخير ما كان يستعجله مشركو مكة من وعيد الله لهم ووعده لرسله بالنصر عليهم وبيان عذاب الآخرة فوق ما أنذروا به من عذاب الدنيا ، فإن لم يدركه العذاب الأول لم يفلت من الثانى .

وبعد أن أبان سبحانه أمر الموت والرجوع إلى الله للحساب والجزاء ، ذكر قهره لعباده وإرسال الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم فقال :

(وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) أى إنه تعالى هو الغالب خلقه العالى عليهم بقدرته وسلطانه لا المقهورون من الأوثان والأصنام المغلوبون على أمرهم ، ويرسل عليكم حفظة من الملائكة يتعاقبونكم ليلا ونهارا يحفظون أعمالكم ويحصونها ، ولا يفرطون فى حفظ ذلك وإحصائه ولا يضيعون شيئا منها . وإرسال الحفظة عليهم مراقبتهم لهم وإحصاء أعمالهم وكتابتها وحفظها فى الصحف التى تنشر يوم الحساب ، وهى المرادة بقوله تعالى : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ »

وهؤلاء الحفظة هم الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف صفتها ولا نتحكم فيها بآرائنا .

وما مثل مراقبة أولئك الحفظة إلا مثل : (مراقبة رجال البوليس السرى فى حكومات العصر الحديث) .

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الآية : الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم ، يحفظونهم من القتل ، ألم تسمع أن الله تعالى يقول : « وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ » لم يغن الحرس عنهم شيئا ، وفى معنى الآية قوله : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ » .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعا « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » .

والحكمة فى كتابة الأعمال وحفظها على العاملين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات وأبعث له على عمل الصالحات ، فإن المرء إن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذى يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة الذى تثمر الحياء ، ربما غلب عليه الغرور بالكرم الإلهى والرجاء فى المغفرة والرحمة فلا يكون لديه من الخشية والحياء ما يزجره عن المعصية ، كما يزجره توقع الفضيحة فى موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم ، كما قال تعالى : (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لاَيُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

(حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) أى يرسل عليكم

حفظة من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم ، حتى إذا جاء أحدكم الموت وانتهى عمله ، توفته وقبضت روحه رسلنا الموكلون بذلك من الملائكة وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولون ذلك بأمره كما قال تعالى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) .

روى ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه سئل عن ملك الموت أهو وحده الذى يقبض الأرواح ؟ قال هو الذى يلى أمر الأرواح وله أعوان على ذلك ، وقرأ الآية ، ثم قال غير أن ملك الموت هو الرئيس .

وروى عن إبراهيم النخعى ومجاهد وقتادة ، أن الأعوان يقبضون الأرواح من الأبدان ثم يدفعونها إلى ملك الموت . وعن الكلبى أن ملك الموت هو الذى يتولى القبض بنفسه ويدفعها إلى الأعوان ، فإن كان الميت مؤمنا دفعها إلى ملائكة الرحمة وإن كان كافرا دفعها إلى ملائكة العذاب : أى وهم يتوجهون بالأرواح إلى حيث يوجههم الله بأمره ، وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كيفيته .

وجاء إسناد التوفى إلى الله فى قوله : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » إما لأنه هو الآمر لملك الموت ولأعوانه جميعا بذلك — وإما لأنه هو الفاعل الحقيقى والمسخر لملك الموت وأعوانه فهم لا يعملون إلا بأمره ولا يتصرفون إلا بتسخيره .

(ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ثم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل إلى الله الذى هو مولاهم ومالك أمورهم ، وهو الحق الذى لا يقضى إلا بالعدل ، ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم .

وفى الآية إيماء إلى أن ردهم إليه حتم ، لأنه هو سيدهم الذى يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق .

وأما تولى بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة أو ملك التصرف والسياسة ، فمنه ما هو باطل من كل وجه ، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لا ثبات له ولا بقاء ، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره فى سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة

لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا ، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا و بقى المولى الحق وحده .

(ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) أى له الحكم وحده ليس لغيره منه شىء فى ذلك اليوم كما قال : « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » وقال : « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ » وقال : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

وسرعة حسابه — أنه يحاسب العباد كلهم فى أسرع زمن وأقصره ، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره ، ولا يشغله شأن عن شأن .

والخلاصة — إنه تعالى أسرع الحاسبين إحصاء للأعمال ومحاسبة عليها .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً : لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) .

شرح المفردات

ظلمات البر والبحر : ضربان ، ظلمات حسية كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر ، وظلمات معنوية كظلمة الجهل بالمسالك والطرق ، وظلمة فقد الأعلام والمنار ، وظلمة الشدائد والأخطار كالعواصف والأعاصير وهياج البحار ، إلى نحو ذلك من الشدائد التى تبطل الحواس وتدهش العقول ، قال الزجاج : العرب تقول لليوم الذى فيه شدة : يوم مظلم ويوم ذو كواكب أى إنه قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل فى ظلمته ، وفى المثل : رأى الكواكب ظهرا ، أى أظلم عليه يومه

لاشتداد الأمر فيه حتى كأنه أبصر النجم نهارا ، والتضرع: المبالغة فى الضراعة ، وهى الذل والخضوع ، والمراد منه هنا ما كان صادرا عن الإخلاص الذى يثيره الإيمان الفطرى المطوى فى أنفس البشر ، والخفية (بالضم والكسر) الخفاء والاستتار ، والدعاء قد يكون بالجهر ورفع الصوت مع البكاء ، وقد يكون بالإسرار هربا من الرياء ، فتارة يجأر المرء بالدعاء رافعا صوته متضرعا مبتهلا ، وأخرى يسر الدعاء ويخفيه مخلصا محتسبا ، ويتحرى ألا تسمعه أذن ولا يعلم به أحد ، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول وأرجى لنيل المسئول ، والكرب : الغم الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن أبان الله لعباده إحاطة علمه وشمول قدرته ، واستعلاءه عليهم بالقهر ، وحفظه أعمالهم عليهم - ذكرهم هنا بالدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية ونهاية الرحمة والفضل والإحسان .

الإيضاح

(قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وعما أودع فى الآفاق من آيات التوحيد : من ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم وأظلمت عليكم المحجة ، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه فأظلم عليكم فيه السبيل فلم تهتدوا - غير الله الذى إليه مفزعكم بالدعاء تضرعا منكم إليه معلنين الدعاء تارة ومخفين له أخرى .

(لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الظلمات التى نحن فيها لنكونن ممن يوحدك بالشكر ويخلص لك بالعبادة دون من نشركه معك فى عبادتك .

وفى معنى الآية قوله : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ

فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

(قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) أى إن الله ينجيكم المرة بعد المرة من تلك الظلمات ومن كل كرب يعرض لكم ، ثم أنتم تشركون به غيره بعد النجاة أقبح الشرك ، حال كونكم مخلفى وعدكم له بالشكر حانثين بما وكدتموه من الأيمان .

وأظهر أنواع الشرك أنكم تدعون أولياء من دون الله وتنسبون إليهم الشفاعة عنده ، حتى هذه النجاة التى نجا كموها .

والخلاصة — إنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ فى هذه الحالة إلا إلى الله ولا تعويل إلا على فضله ، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص فى جميع الأحوال والأوقات ، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال الجسمانية أو إلى نحو ذلك من الأسباب ويعود إلى الشرك فى العبادة ولا يوفى بالعهد .

وفى الآية تنبيه إلى أن من أشرك فى عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبده رأسا ، فالتوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة .

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) .

شرح المفردات

الشيع : واحدهم شيعة ، وهم كل قوم اجتمعوا على أمر، قال تعالى : « كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ » ويلبسكم : أى يخلط أمركم خلط اضطراب لاخلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفة لافرقة واحدة ، ونصرف الآيات : نحولها من نوع إلى آخر من فنون الكلام تقريرا للمعنى وتقريبا إلى الفهم ، والفقه : فهم الشيء بدليله وعلته المفضى إلى الاعتبار والعمل به ، والوكيل : هو الذى توكل إليه الأمور ، ومستقر : وقت استقرار ووقوع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكّر الله المشركين ببعض آياته فى أنفسهم وبمننه عليهم ، بإنجائهم من الأهوال والكروب التى يشعر بها كل من وقعت له منهم إما بتسخير الأسباب ، وإما بدقائق اللطف والإلهام .

ذكر هنا قدرته على تعذيبهم ، وأبان أن عاقبة كفران النعم أن تزول وتحل محلها النقم ، وأن الله يمهل ولا يهمل ، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

الإيضاح

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) أى قل أيها الرسول لقومك الذين يشركون مع الله سواه ، ولا يشكرون نعمه التى أسداها إليهم : إن الله هو القادر على أن يرسل عليكم عذابا تجهلون حقيقته ، فيصب عليكم من فوقكم ، أو يثيره من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم ويخلطكم فرقا وشيعا على أهواء شتى ، كل فرقة تشايع إماما فى الدين أو تتعصب لملك أو رئيس، أو يذيق بعضكم بأس بعض فيقتل بعضكم بيد بعض .

وقد ورد فى التفسير بالمأثور ، أن المراد بالعذاب من فوقُ الرجمُ من السماء

والطوفان كما وقع لبعض الأمم القديمة ، وبالعذاب من تحت : الخسف والزلازل المعهودة قديما وحديثا ، وروى عن ابن عباس أن المراد بمن فوقكم أى من أمرائكم ، ومن تحت أرجلكم : أى عبيدكم وسِفْلتكم .

ولا شك أن لفظ العذاب مبهم قصد به هذا الإبهام لأجل الشمول ، فينطلق على ما يدل عليه اللفظ مما يحدث فى المستقبل أو ينكشف للناس فيه ما كان خفيا عنهم ، فالقرآن لا تفنى عجائبه ، وفيه نبأ مَنْ قبل ونبأ من كان فى زمن التنزيل ونبأ من سيجىء بعدهم .

فهذه الآية ظهر تفسيرها بأجلى برهان فى هذه الحروب فى العصر الحديث مما لم يسبق له نظير ولم يكن البشر على علم منه ، فقد أرسل الله فيها على الأمم المحاربة عذابا من فوقها بما تقذفه الطائرات والمطاود وقاذفات القنابل التى تحمل كل منها الآلاف المؤلفة من المواد المتفجرة من الحديد والمعادن الأخرى المهلكة ، ومن المواد المحرقة ، وصارت تمشى آلاف الأميال لتصل إلى أهدافها المقصودة فتخرب المدن والقرى ، وتجعل عاليها سافلها ، بما تصب فيها من عَلُ ، من الحمم المتقدة والنيران المشتعلة ، حتى ليراها الرائى كأنها بركان ثائر يريد أن يبتلع من حوله ويلتهم جميع ما فوق سطح الأرض .

وكذلك مقذوفات المدافع البعيدة المدى التى تطلق قناطير من أفواهها وترسله من فوق من مواد قاتلة مما لم يعرف الناس له نظيرا من قبل . وكذلك يأتيها العذاب من تحتها بما تحدث السفن الغواصة فى البحار بما ترسله من (الطوربيد) الحامل للقناطير المقنطرة من مختلف المعادن وتتحين به الفرص لمقابلة سفن العدو فتصبه عليها صبا . وتهلك به مختلف السفن ولا تقوى على النجاة منها مهما عظم حجمها ودق صنعها بل لابد أن تهوى فى قاع البحار إذا قدر لها أن تصاب به ، فكم من سفينة غرقت . وكم من روح زهق به وأصبح طعاما للسمك وحيوان البحر .

وكذلك جعل أمم أوربا شيعا متعادية . وأذاق بعضها بأس بعض فحل بها من

التقتيل والتخريب ما لو لم نره بأعيننا ونسمع عنه الأحاديث المستفيضة التى لا تقبل شكا ولا ريبا ـ لكنا فى موضع الشك فيه لغرابته وشدة هوله وذهول الناس حين رؤيته ، فترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكنهم من الذعر وشدة الخطب حيارى ، لا يدرون ما ذاهم فاعلون ، ولا أى مكان يسلكون ؛ ليتقوا ذلك الهلاك المحقق ، والعذاب الذى لابد واقع بهم إلا من رحم الله .

وقد روى أحمد والترمذى عن سعد بن أبى وقاص قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ـ قل هو القادر الخ ـ فقال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعدُ » .

وروى البخارى والنسائى من حديث جابر قال : « لما نزلت هـذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعوذ بوجهك) قال : (أو من تحت أرجلكم) قال : (أعوذ بوجهك) (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هاتان أهون أو أيسر) » .

وإنما كانت هاتان أهون أو أيسر لأن المستعاذ منه قبلهما هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين حتى لا يبقى من الأمة أحد .

وروى عن ابن عباس من طريق أبى بكر بن مردويه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض وألا يلبسهم شيعا ولايذيق بعضهم بأس بعض، فرفع عنهم الخسف والرجم، وأبى أن يرفع الآخرين»

وروى مسلم من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله زوى (جمع) لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها ، وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة : (كالمجاعة والقحط والغرق والصيحة والرجفة والريح الصرصر)

وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم : (عزتهم ومستقر ملكهم)
و إن ربى قال: يامحمد إذا قضيت قضاء فإنه لايرد ، و إنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم
بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع
عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا و يسبى بعضهم بعضا » .

وقد ظهر صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى بلوغ ملك أمته مشارق الأرض
ومغاربها وفى وقوع بأسهم بينهم ، وما زال ملكهم عن أكثر تلك الممالك
إلا بتفرقهم ثم بمساعدتهم للأجانب على أنفسهم ، وكم تألبت عليهم الأمم فلم ينالوا
منهم بدون ذلك منالا ، وما بقى لهم الآن إلا القليل الذى يطمع فيه الطامعون .

ومن هذا نعلم أن الله لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم
ما داموا مستمسكين بها .

يرشد إلى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن تداعى عليكم
الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أنتم
يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم
وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا
وكراهية الموت » رواه أبو داود والبيهقى .

(انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) أى تأمل بعين بصيرتك أيها
الرسول كيف نصرف الآيات والدلائل ونتابعها على أنحاء شتى : منها ما طريقه
الحس ، ومنها ماطريقه العقل ، ومنها ما سبيله علم الغيب ، لعلهم يفقهون الحق و يدركون
الحقائق بأسبابها وعللها التى تفضى إلى الاعتبار والعمل بها .

وأقرب الوسائل إلى تحصيل ذلك تصريف الآيات واختلاف الحجج والبينات ،
وبذا يتذكرون ويزدجرون عما هم عليه مقيمون من التكذيب بكتابنا ورسولنا ،
وانكبابهم على عبادة الأوثان والأصنام .

(وكذب به قومك وهو الحق) أى وكذب قومك بالقرآن على ماصرّفنا فيه

من الآيات الجاذبة إلى فقه الإيمان ، إذ يثبتها الحس والعقل والوجدان ، والحال أنه حق ثابت لا شك فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(قل لست عليكم بوكيل) أى قل لهم أيها الرسول إننى لست عليكم بحفيظ ولا رقيب ، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، أبشركم وأنذركم ولم أعط القدرة على التصرف فى عباده حتى أجبركم على الإيمان جبرا وأكرهكم عليه إكراها « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

(لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) أى لكل شىء ينبأ عنه ويخبر ، مستقر تظهر فيه حقيقته ويتميز حقه من باطله ، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه ، وسوف تعلمون مستقر ما أنبأكم به كتابى من وعد ووعيد ، ومن ذلك ما وعد به الرسول من نصره عليهم ، وما أوعدبه أعداءه من الخزى والعذاب فى الدنيا والآخرة : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ . سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » .

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَىْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ

أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) .

شرح المفردات

أصل الخوض: الدخول فى الماء والمرور فيه سيرا أو سباحة ، ثم استعمل فى الاندفاع فى الحديث والاسترسال فيه ، والدخول فى الباطل مع أهله ، وقد استعمله القرآن بهذين المعنيين ، وأعرض عنهم : انصرف عنهم بدلا من القعود معهم والإقبال عليهم بوجهك ، والذكرى الأولى : بمعنى التذكر والثانية بمعنى التذكير ، والبسل : حبس الشيء ومنعه بالقهر ، ومنه أسد باسل وشجاع باسل أى مانع لما يريد حفظه أن ينال ، وفسر هنا بالحبس فى النار ، وبالحرمان من الثواب ، وبالفضيحة ، وتعدل : تفد ، والعدل : الفداء ، والحميم : الشديد الحرارة ، وأليم : شديد الألم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآيات السابقة تكذيب قريش بالقرآن ، وكون الرسول مبلغا لاخالقا للإيمان ، وأحالهم فى ظهور صدق أنبائه وأخباره على الزمان .

بين فى هذه الآيات السبيل فى معاملة من يخوض فى آيات الله بالباطل ، ومن يتخذ دين الله هزوا ولعبا من الكفار الذين لم يجيبوا الدعوة .

روى عن سعيد بن جبير وابن جريج وقتادة ومقاتل والسدى أن هذه الآية نزلت فى المشركين المكذبين الذين كانوا يستهزئون بالقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس وأبى جعفر ومحمد بن سيرين أنها نزلت فى أهل الأهواء والبدع من المسلمين الذين يؤولون الآيات بالباطل لتأييد ما استحدثوا من المذاهب والآراء وتفنيد أقوال خصومهم بالجدل والمراء .

الإيضاح

(وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) قال ابن جريج : كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزءوا فنزلت : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) الآية . قال فجعل إذا استهزءوا قام فحذروا وقالوا لا تستهزئوا فيقومَ .

والمخاطب بالآية الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كان معه من المؤمنين ، ثم المؤمنون فى كل زمان . أى وإذا رأيت أيها المؤمن الذين يخوضون فى آياتنا المنزلة من الكفار المكذبين ، أو من أهل الأهواء المفرقين ، فصدّ عنهم بوجهك وقم ولا تجلس معهم ، حتى يخوضوا فى حديث غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها من جانب الكفار أو تأويلها بالباطل من جانب أهل الأهواء ، تأييدا لما استحدثوا من مذاهب وآراء ، وتفنيدا لأقوال خصومهم بالشغب والجدل والمراء ، وإذا خاضوا فى غير ذلك فلا ضير فى القعود معهم .

وسر هذا النهى أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم يغريهم فى التمادى فيما هم فيه ، ويدل على الرضا به والمشاركة فيه ، والمشاركة فى ذلك كفر ظاهر ، لا يرتكبه إلا كافر مجاهر أو منافق مراء .

كما أن فى التأويل لنصر البدع والآراء الفاسدة فتنة فى الدين لا تنقص عن الأولى ضررا ، فإن أربابها تغشهم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ويخدمون الشرع ، ومن ثم حذر السلف من مجالسة أهل الأهواء أشد مما حذروا من مجالسة الكفار ، اذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر مقدار ما يخشى من فتنة المبتدع .

ومن الناس من يحرفون آيات الله عن مواضعها بهواهم ليكفروا بها مسلما أو يضللوا بها مهتديا ، بغيا عليه وحسدا له .

(وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) أى وإن

أنساك الشيطان النهى مرة وقعدت معهم وهم على تلك الحال ثم ذكرت ذلك فقم عنهم، ولا تقعد مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها بدلا من الإيمان بها والاهتداء بهديها .

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد غيره على حد المثل : إياك أعنى واسمعى يا جارة : وهو كثير فى كلام العرب ، أو للرسول صلى الله عليه وسلم بالذات ولغيره بالتبع كما هو الشأن فى أحكام التشريع غير الخاصة به صلى الله عليه وسلم .

ووقوع النسيان من الأنبياء بغير وسوسة من الشيطان لا خلاف فى جوازه قال تعالى لخاتم أنبيائه : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » وثبت وقوعه من موسى عليه السلام : « قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ » ولكن الله عصمهم من نسيان شىء مما أمرهم بتبليغه أو بإخلال بالدين كإضاعة فريضة أو تحريم حلال أو تحليل حرام .

وثبت فى الصحيحين والسنن « أن النبى صلى الله عليه وسلم سها فى الصلاة وقال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى » .

وإنساء الشيطان للانسان بعض الأمور ليس من قبيل التصرف والسلطان حتى يدخل فى مفهوم قوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

ومن هذا تعلم أن نسيان الشىء الحسن الذى يسند إلى الشيطان لكونه ضارا أو مفوتا لبعض المنافع أو لكونه حصل بوسوسته ولو بشغل القلب ببعض المباحات لا يعد من سلطان الشيطان على الناس واستحواذه عليهم بالإغواء والإضلال الذى نفاه الله عن عباده المخلصين .

(وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) أى وما على الذين يتقون من حساب الخائضين فى آياته شىء فلا يحاسبون على خوضهم فيها ولا على غيره من أعمالهم التى يحاسبهم الله تعالى عليها إذا هم تجنبوهم وأعرضوا عنهم كما أمروا .

(ولكن ذكرى لعلهم يتقون) أى ولكن ليعرضوا عنهم ذكرى لأمر الله، لعلهم يتقون فيتجنبوا الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم.

(وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا) أى ودع أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا الفاتنة فآثروها على الحياة الباقية، واشتغلوا بلذاتها الحقيرة الفانية المشوبة بالمنغصات، عما جاءهم من الحق مؤيدا بالحجج والآيات، فاستبدلوا الخوض فيها بما كان يجب من فقهها وتدبرها.

ونحو الآية قوله تعالى: « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ». واتخاذهم دينهم هزوا ولعبا، أنهم لما عملوا ما لا يزكى نفوسهم ولا يطهر قلوبهم ولا يهذب أخلاقهم ولا يقع على وجه يرضى الله سبحانه ولا يُعد للقائه فى دار الكرامة، أضاعوا الوقت فيما لا يفيد وهذا هو اللعب، أو شغلوا عن شئونهم وهمومهم الأخرى وهذا هو اللهو.

وخلاصة المعنى — أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لعملهم فى نظرك وزنا.

(وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت) الضمير فى قوله « به » يعود إلى القرآن المعلوم بقرينة الحال، لأنه هو الذكر الذى بعث به الرسول المذكر: أى وذكر الناس وعظهم بالقرآن اتقاء أن تبسل كل نفس فى الآخرة بما كسبت أى اتقاء حبسها أو رهنها فى العذاب، وتفاديا من ذلك بما بينه الذكر الحكيم من أسباب النجاة والسعادة فى هذه الدار كما قال: « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ».

(ليس لها من دون الله ولىّ ولا شفيع) أى والحال أنه ليس لها من غير الله ولىّ ولا ناصر ينصرها ولا شفيع يشفع لها عند الله كما قال: « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » وقال: « قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا » وقال: « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ».

(وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) أى وإن تفد النفس المبسلة كل نوع من أنواع الفداء لا يؤخذ منها ولا يقبل ، والمراد أنه لا يقع الأخذ ولا يحصل ، وهذا كقوله فى سورة البقرة : « وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ » .

والخلاصة — إن النفس المبسلة تمنع فى ذلك اليوم من أى وسيلة من وسائل النجاة ، فلا ولىّ ولا حميم ولا شفيع ولا فداء إلى نحو أولئك مما ربما نفع فى مقاصد الدنيا وأنجز بعض المنافع .

وفى هذا إبطال لأصل من أصول الوثنية وهو رجاء النجاة فى الآخرة كما هو الحال فى الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى أو بشفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء عنده تعالى ، وتقرير لأصل دينى وهو أن لا نجاة فى الآخرة ولا رضوان من الله ولا قرب منه إلا بالعمل بما شرعه على ألسنة رسله من إيمان به وعمل صالح يزكى النفس ويطهرها ، أما من دسى نفسه وأبسله كسبه للسيئات والخطايا واتخذ دين الله هزوا ولعبا وغرته الحياة الدنيا فلا تنفعه شفاعة ولا تقبل منه فدية .

(أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا) أى أولئك المتخذون دينهم هزوا ولعبا المغترون بالحياة الدنيا ، هم الذين حرموا الثواب وأسلموا للعذاب وحبسوا عن دار السعادة ، بسبب ما كسبوا من الأوزار والآثام حتى أحاطت بهم خطاياهم ، ولم يكن لهم من دينهم الذى اتخذوه زاجر ولا مانع يرشدهم إلى التحول عن تلك الأعمال القبيحة ويصدهم عن العقائد الزائفة .

ثم بين سبحانه ما يكون لهم من الجزاء حين أبسلوا فقال :

(لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى لهم شراب من ماء حميم : أى بالغ الغاية فى الشدة يتردد فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، وعذاب شديد الألم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم الذى ظلوا عليه طول حياتهم حتى صرفوا عما جعل وسيلة للنجاة لو اتبعوه .

والخلاصة — إن رسوخهم فى الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير، وفى ذلك عبرة لمن يفقه القرآن ولا يغتر بلقب الإسلام، ويعلم أن المسلم من اتخذ القرآن إمامه وسنة الرسول طريقه، لا من اغتر بالأمانى والأوهام، ولا من ركن إلى شفاعة الشافعين والأولياء والناصرين.

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣).

شرح المفردات

الأعقاب: واحدها عقب: وهو مؤخر الرجل، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة أو سفل بعد رفعة أو أحجم بعد إقدام على محمدة: نكص على عقبيه وارتد على عقبيه ورجع القهقرى، ثم صار يطلق على كل تحول مذموم، واستهوته الشياطين: ذهبت بعقله وهواه، وكانت العرب فى الجاهلية تزعم أن الجنون كله من تأثير الجن، ومنه قولهم: جن فلان، أى مسته الجن فذهبت بعقله، وكانوا يقولون إن الجن تظهر لهم فى المهامه وتتلون لهم بألوان مختلفة فتذهب بلب من يراها فيهيم على وجهه لايدرى أين يذهب حتى يهلك، وهذه الشياطين التى تتلون هى التى يسمونها الغيلان والأغوال والسعالى

وقوله حيران : أى تائها ضالا عن الجادّة لا يدرى ما يصنع ، والصور فى اللغة : القرن وقد ثقب الناس قرون الوعول والظباء وغيرها فجعلوا منها أبواقا ينفخون فيها لها صوت شديد يدعى به الناس إلى الاجتماع ويعزفون بها كغيرها من آلات الطرب ، وقد جاء فى سفر الأيام الأول من كتب العهد العتيق : فكان جميع بنى إسرائيل يصعدون تابوت عهد الرب بهُتاف وبصوت الأصوات والأبواق والصنوج ويصوتون بالرباب والعيدان .

الإيضاح

(قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟) أى قل أيها الرسول للآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم ، أندعو من دون الله حجرا أو شجرا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا فنخصه بالعبادة دون الله وندع عبادة الذى بيده الضر والنفع والحياة والموت إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر ؟ ولا شك أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره أحق وأولى من خدمة من لا يرجى منه شىء منهما ، ونرد على أعقابنا بالعودة إلى الضلال والشرك بعد إذ هدانا الله إلى الإسلام .

والخلاصة — إن ذلك لا ينبغى ولا يكون للأسباب الآتية :

(١) إن هذا تحول وارتداد عن دعاء القادر الذى يكشف الضر إن شاء ويمنح الخير إن شاء — إلى دعاء العاجز الذى لا يقدر على نفع ولا ضر .

(٢) إنه نكوص على الأعقاب وتقهقر إلى الوراء .

(٣) إن من أنقذه الله القدير الرحيم من الضلالة بما أراه من آياته فى الأنفس والآفاق لا يقدر أحد أن يضله «وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ» .

(كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا) أى أنرد على أعقابنا فيكون مثلنا فى ذلك مثل الرجل الذى استتبعه الشيطان

يهوى فى الأرض حيران تائها ، له أصحاب على المحجة واستقامة السبيل يدعونه إلى طريق الهدى الذى هم عليه ويقولون له ائتنا.

وخلاصة المثل — إن من يرتد مشركا بعد الإيمان كمن جعله العشق أو الجنون هائما على وجهه ضالا فى الفلوات حيران لا يهتدى ، تاركا رفاقه على الطريق المستقيم ينادونه : عد إلينا فلا يستجيب لهم لانجذابه وراء ما تراءى له بغير عقل ولا بصيرة . قال صاحب الكشاف وهذا مبنى على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من أن الجن تستهوى الإنسان والغيلان تستولى عليه كقوله : « كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » .

(قل إن هدى الله هو الهدى) أى قل إن هدى الله الذى أنزل به آياته وأقام عليه حججه وبيناته هو الهدى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا ماتدعون إليه من أهوائكم اتباعا لما ألفيتم عليه آباءكم .

(وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى وأمرنا بأن نسلم لله رب العالمين فأسلمنا .

(وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أى وأمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة والتقوى ، وإقامة الصلاة: الإتيان بها على الوجه الذى شرعت لأجله، وهى أن تزكى النفس بمناجاة الله وذكره وتنهى عن الفحشاء والمنكر، والتقوى : اتقاء ما يترتب على مخالفة دين الله وشرعه وتنكب سننه فى خلقه من ضرر وفساد .

(وهو الذى إليه تحشرون) أى وهو الذى تجمعون وتساقون إلى لقائه يوم القيامة دون غيره فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها ، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يعبد غيره أو يخاف ويرجى .

(وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) أى وهو الذى خلقهما خلقاً متلبساً بالحق ، وهو أنه وفق سننه المطردة المشتملة على الحكم البالغة الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته البالغة ، ولم يخلقهما باطلا ولا عبثا فهو لا يترك الناس سدى ،

بل يجزى كل نفس بما كسبت ، ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً » وقوله : « ومَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ » .

(ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق) أى وقوله هو الحق الذى لا شك فيه يوم يقول للشيء كن فيكون وهو وقت إيجاد العالم وتكوينه ، فلا مرد لأمره ولا تخلف لقضائه وحكمه ، ومن كان أمره التكوينى مطاعا يكن أمره التكليفى كذلك واجب الطاعة بلا حرج فى النفس ولا ضيق منه ، فالخلق حق والأمر حق : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

(وله الملك يوم ينفخ فى الصور) أى وله الملك يوم الحشر يوم يبعث من فى القبور وينفخ فى الصور ، والأمر حينئذ لله وحده ، ولا تملك نفس لنفس شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضر ، فكيف يرضى لنفسه من يعرف هذه الحقائق ــ أن يدعو سواه ويتخذ له إلها غير الله ويرد إلى عقبيه ويرجع إلى أسوإ حاليه ؟.

روى عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الصور فقال : «هو قرن ينفخ فيه» وروى عن ابن مسعود أنه قال : « الصور كهيئة القرن ينفخ فيه»

(عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) قال الحسن : الشهادة ما قد رأيتم خلقه ، والغيب ما غاب عنكم مما لم تروه ، وقال ابن عباس : الغيب والشهادة السر والعلانية .

والمعنى ــ إن الذى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ، والذى قوله الحق تكوينا وتكليفا، والذى له الملك وحده يوم يحشر الخلائق ــ هو عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الذى يضع الأشياء مواضعها ، وهو الخبير بدقائقها وخفاياها ، ولا يشذ عن علمه شيء منها ، فلا ينبغى لعاقل أن يدعو غيره معه كما قال : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا » وقال : « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً؟ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ، قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) .

شرح المفردات

إبراهيم اسم خليل الرحمن أبى الأنبياء الأكبر من بعد نوح ، وهو العاشر من أولاد سام كما فى سفر التكوين ، ولد فى بلدة (أور) أى النور من بلاد الكلدان ، وهى المعروفة الآن باسم (أورفا) فى ولاية حلب كما يرجح ذلك بعض المؤرخين .

وفى سفر التكوين — إن الله تعالى ظهر له فى سن التاسعة والتسعين من عمره وكلمه وجدد عهده له بأن يكثر نسله ويعطيه أرض كنعان (فلسطين) ملكا له وسماه لذريته اهـ .

ومعنى إبراهيم أبو الجمهور العظيم : أى أبو الأمة وهو تبشير من الله له بتكثير نسله من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام .

وقد أثبت علماء الآثار أن عرب الجزيرة استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما .

ونقل بعض المؤرخين أن الملك جورابي الذى كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام عربي .

وقد أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية فى الوادى الذى بنيت فيه مكة وأن الله سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هناك .

وأبو إبراهيم سماه الله آزر ، وفى سفر التكوين اسمه تارح ، ومعناه متكاسل ، وقال البخارى فى تاريخه إبراهيم بن آزر وهو فى التوراة تارح والله سماه آزر اه .

وجزم الضحاك وابن جرير أن اسمه آزر ، والضلال: العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التى يطلبها العاقل من سيره الحسى والمعنوى ، وملك الله وملكوته : سلطانه وعظمته ، وجنه الليل وأجنه ستره ، والكوكب والكوكبة : واحد الكواكب ، وهى النجوم ، ربى أى مولاى ومدبر أمرى ، الأفول : غيبوبة الشيء بعد ظهوره ، وبزوغ القمر ابتداء طلوعه ، وتوجيه الوجه لله تعالى تركه يتوجه إليه وحده فى طلب حاجته وإخلاص عبوديته ، وفطر السموات والأرض : أخرجهما إلى الوجود ، والحنيف : المائل عن الضلال .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ؟) أى واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين لقناك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم إذ عبدوا ما لاينفعهم ولا يضرهم ــ قصص جدهم إبراهيم الذى يبجلونه ويدّعون اتباع ملته حين جادل قومه وراجعهم فى باطل ما كانوا يعملون ، إذ قال لأبيه آزر منكراً عليه وعلى قومه شركهم وعائبا عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه ، يا آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذى خلقك وخلقها ؟ فهو المستحق للعبادة دونها .

(إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) أى إنى أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك ، فى ضلال عن الصراط المستقيم ، مبين لا شبهة فيه للهدى ،

فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب ، أو تصنعونها من المعادن ، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا ، ولم تكن آلهة بذاتها بل باتخاذكم إياها ولا يليق بالعاقل أن يعبد ما هو مساو له فى الخلق ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه ومحتاج إلى الغنى القادر ولا يقدر على نفع ولا ضر ولا إعطاء ولا منع .

والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى لخاتم أنبيائه : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » وقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الذى يسلكه : إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضالّ عنه .

وقد دلت آثار الكشف الحديث فى العراق على صدق ما عرف فى التاريخ من عبادة أولئك القوم للأصنام الكثيرة حتى كان لكل منهم صنم للعبادة خاص به ، سواء فى ذلك الملوك والسوقة ، وكانوا يعبدون الفلك والنيرات من الكواكب عامة والدرارى السبع خاصة .

(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) أى وكما أرينا إبراهيم الحق فى أمر أبيه وقومه وهو أنهم كانوا فى ضلال مبين فى عبادتهم للأصنام والأوثان .

كذلك أريناه مرة بعد مرة ملكوت السموات والأرض : أى خلقهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع فأريناه تلك الكواكب التى تدور فى أفلاكها على وضع لا تعدوه ، وأريناه الأرض وما فى طبقاتها المختلفة من أصناف المعادن النافعة للانسان فى معاشه إذا هو استخدمها على الوجه الصحيح الذى أرشدناه إليه ، وجلينا له بواطن أمورها وظواهرها ، وهذه إلى وجوه الحجة فيها مما يدل على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته وإحاطة علمه بكل شىء .

(وليكون من الموقنين) أى نريه ذلك ليعرف سنننا فى خلقنا وحكمنا فى تدبير ملكنا وآياتنا الدالة على ربوبيتنا ، ليقيم بها الحجة على المشركين الضالين ، وليكون فى خاصة نفسه من زمرة الراسخين فى الإيقان البالغين عين اليقين .

ثم فصل سبحانه ما أجمله من رؤية ملكوت السموات والأرض فقال :

(فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا) أى إنه تعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض ، كان من أول أمره فى ذلك أنه لما أظلم عليه الليل وستر عنه ما حوله من عالم الأرض نظر فى ملكوت السموات فرأى كوكبا عظيما ممتازا عن سائر الكواكب بإشراقه وبريقه ولمعانه ، وهو : (كوكب المشترى) الذى هو أعظم آلهة بعض عباد الكواكب من قدماء اليونان والرومان ، وكان قوم إبراهيم أئمتهم فى هذه العبادة وهم لهم مقتدون ـ فلما رآه .

(قال هذا ربى) أى قال هذا فى مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيداً للانكار عليهم ، فحكى مقالتهم أولا ليستدرجهم إلى سماع حجته على بطلانها ، فأوهمهم أوّلا أنه موافق لهم على زعمهم ثم كر عليه بالنقض بانيا دليله على الحس والعقل .

(فلما أفل قال لا أحب الآفلين) أى فلما غرب هذا الكوكب واحتجب قال لا أحب ما يغيب ويحتجب ، إذ من كان سليم الفطرة لا يختار لنفسه حب شى يغيب عنه ويوحشه فقده ، فما بالك بحب العبادة الذى هو أعلى أنواع الحب وأكمله ، لأنه قد هدت إليه الفطرة وأرشد إليه العقل السليم ، فلا ينبغى أن يكون إلا للرب الحاضر القريب السميع البصير الرقيب الذى لا يغيب ولا يغفل ولا ينسى ولا يذهل ، الظاهر فى كل شىء بآياته :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

والباطن فى كل شىء بحكمته ولطفه الخفى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » وقد جاء فى الحديث فى وصف الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

والخلاصة — إن فى هذا تعريضا بجهل قومه فى عبادة الكواكب إذ يعبدون ما يحتجب عنهم ولا يدرى شيئا من أمر عبادتهم وهذا قريب من قوله لأبيه : « لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » .

وقد احتج إبراهيم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ، لأن الأفول انتقال مع خفاء واحتجاب وهو مما ينافى الربوبية .

(فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى) أى فلما رأى القمر طالعا من وراء الأفق أول طلوعه قال هذا ربى على طريق الحكاية لما كانوا يقولون تمهيدا لإبطاله كما علمت فيما سلف .

والمتبادر من سياق الكلام أن إبراهيم رأى الكوكب فى ليلة ورأى القمر فى الليلة التالية .

(فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) أى فلما أفل القمر كما أفل الكوكب وهو أكبر منه منظرا وأسطع نورا وأقوى منه ضياء قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى ويوفقنى لإصابة الحق فى توحيده لأكونن من القوم الضالين الذين أخطئوا الحق فى ذلك فلم يصيبوا الهدى وعبدوا غير الله واتبعوا أهواءهم ولم يعملوا بما يرضيه سبحانه .

وفى هذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه ، وإرشاد إلى توقف هداية الدين على الوحى الإلهى ، وقد ترقى فى هذا التعريض لأن الخصوم قامت عليهم الحجة بالاستدلال الأول فأنسوا بالقدح فى معتقدهم فما عرّض صلوات الله عليه بضلالهم إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى إتمام المقصود واستماعه إلى آخره ، وقد انتقل فى المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك بين بعد أن تبلج الحق وظهر غاية الظهور ، وذلك قوله :

(فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) أى قال مشيرا إليها : هذا الذى أرى الآن هو ربى .

(هذا أكبر) أى من الكوكب والقمر ، وفى هذا مبالغة فى المجاراة لهم وتمهيد لإقامة الحجة عليهم واستدراج لهم إلى التمادى فى الاستماع بعد ذلك التعريض الذى كان يخشى أن يصدهم عنه .

والخلاصة — إن هذا الطالع أكبر من الكوكب والقمر قدرا وأعظم ضياء ونورا فهو أجدر منهما بالربوبية .

(فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون) أى فلما أفلت كما أفل غيرها واحتجب ضوء المشرق وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر صرّح بما أراد بعد ذلك التعريض الذى تقدم متبرئا من شرك قومه وتنحى عنه لقبحه بعد أن جاراهم عليه أولا استمالة لهم و إصغاء إلى ما يقول .

والخلاصة — إنه حاور وداور وتلطف فى القول وأرخى لخصمه العنان حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجه وأحسن طريق متبرئا من تلك المعبودات التى جعلوها أربابا و آلهة مع الله .

و بعد أن تبرأ من شركهم قفى تلك البراءة ببيان عقيدته عقيدة التوحيد الخالص فقال :

(إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) أى إنى جعلت توجهى فى عبادتى لمن خلق السموات والأرض وأكمل خلقهن أطوارا فى ستة أيام ، فهو خالق هذه الكواكب النيرات وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من معدن ونبات .

وفى معنى الآية قوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً » وقوله : « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » و إسلام الوجه له تعالى توجه القلب، وعبر عنه به لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من الإقبال أو الإعراض والسرور أو الكآبة إلى نحو أولئك . وتوجيهه له جعله يتوجه إليه وحده ، فى طلب حاجته و إخلاص عبوديته إذ هو المستحق للعبادة القادر على الأجر والثواب .

والخلاصة — إن إبراهيم تبرأ أولا من شركهم أو شركائهم ثم تبرأ منهم أنفسهم . ونحو الآية قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

روى ابن جرير عن ابن زيد أن قوم إبراهيم قالوا حين قال إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض : ما جئت بشىء ونحن نعبده ونتوجه إليه فرد عليهم بأنه حنيف أى مخلص له لايشرك به كما يشركون اه .

يريد أنه مائل عن معبوداتهم الباطلة وعن غيرها ، فتوجهه وإسلامه خالص ولا يشوبه شرك ولا رياء ، وما هو من المشركين به الذين يتوجهون إلى غيره من المخلوقات كالكواكب أو الملائكة أو الملوك أو الصالحين أو ما يتخذ لهم من الأصنام والتماثيل .

وظاهر ما حكاه الله عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن قومه كانوا يتخذون الأصنام آلهة لا أربابا ويتخذون الكواكب أربابا آلهة ، والإله هو المعبود وكل من عبد شيئا فقد اتخذه إلها ، والرب : هو السيد المالك المربى المدبر المتصرف ، وليس للخلق رب ولا إله إلا الله الذى خلقهم، فهو المالك لكل شىء وفى كل زمن وعلى كل حال، وملك غيره ناقص موقوت فهو المعبود بحق، والعبادة : هى التوجه بالدعاء والتعظيم القولى أو العملى إلى ذى السلطان الأعلى خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه .

والأصل فى اختراع عبادة غير الله من حجر أو شجر أو شمس أو قمر أمران :

(١) إن بعض ضعاف الأحلام رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى فى بعض خلقه ، فتوهموا أن ذلك ذاتى لهذا المخلوق ليس خاضعاً لسنن الله فى الأسباب والمسببات .

(٢) اتخاذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية فى مظاهر النفع والضر وسيلة إلى الإله الحق تشفع عنده وتقرب إليه كل من توجه إليها ، فيتوسل ذو الحاجة إليها بدعائها وتعظيمها بالقول أو الفعل لحمله تعالى بتأثيرها على قبوله وإعطائه سؤله .

وقد أقاموا مقام هذه المخلوقات : التماثيل والأصنام والقبور وغيرها مما يذكّر بها ، وهذه هى الوثنية الراقية التى كانت عليها العرب زمن البعثة ، ومن ثم كانوا يقولون فى طوافهم بالبيت الحرام : لبّيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وماملك.

وكان قوم إبراهيم صلى الله عليه وسلم قد ارتقوا فى وثنيتهم إلى هذه المرتبة

إذ أنهم عقلوا أن الأصنام لا تسمع دعاءهم ولا تبصر عبادتهم ولا تقدر على نفعهم وضرهم، وإنما قلدوا فيها آباءهم كما سيأتى فى حججهم فى سورة الشعراء، ومن ثم اتخذوا الأصنام آلهة معبودين لا أربابا مدبرين، لكنهم اتخذوا الكواكب أربابا لما لها من التأثير السببى فى الأرض، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب الناس والقمر يدبر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام وينصر جندهم ويخذل عدوهم، ويعتقدون أن (مرداخ) وهو المشترى شيخ الأرباب ورب العدل والأحكام وحافظ الأبواب التى يدخلها الخصوم لفصل الخصومات، وأن (رنكال) وهو المريخ رب الصيد وسلطان الحرب، وأن (عشتار) وهى الزهرة ربة الغبطة والسرور والسعادة وتمثل بصورة امرأة عارية، وأن (نيو) وهو عطارد رب العلم والحكمة .

وجاء إبراهيم بحجته البالغة لحصر العبادة فى فاطر السموات والأرض وحده دون غيره من الوسائل فقال فى تماثيلهم : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟! (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) .

شرح المفردات

المحاجة : المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة ، والحجة تطلق تارة على الدلالة المبينة للمقصد ، وتارة على مايدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه أورد دعوى خصمه ، وهى بهذا الاعتبار تنقسم إلى حجة دامغة يثبت بها الحق ، وإلى حجة داحضة يموه بها الباطل ، وقد اصطلحوا على تسمية مثل هذه شبهة ، والسلطان : الحجة والبرهان ، لم يلبسوا : لم يخلطوا ، والظلم هنا هو الشرك فى العقيدة أو العبادة كاتخاذ ولى من دون الله يدعى معه أو من دونه .

الإيضاح

(وحاجه قومه) أى وجادله قومه فى أمر التوحيد ، فهو حين أبان لهم بطلان عبادة الأصنام وربوبية الكواكب ، وأثبت لهم وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده ، حاجوه ببيان أوهامهم فى شركهم إذ قالوا إن اتخاذ الآلهة لا ينافى الإيمان بالله الفاطر للسموات والأرض لأنهم شفعاء عنده ، ولما لم يُجدِ ذلك معه خوفوه أن تمسه آلهتهم بسوء ، وانتهت بهم خاتمة المطاف أن قالوا إنهم ساروا على ما وجدوا عليه آباءهم ، وليس للمقلد أن يحتج ولكنه يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة إذا قامت عليه ، وكثيرا مايضطرب المقلد لسماع الحجة إذ يومض فى قلبه نورها ثم يعود إلى سابق وهمه خائفا مما لا يخيف ، راجيا مالا يرجى ، كما يشاهد لدى زائرى قبور الصالحين والأولياء الذين يتوهمون أن هذه القبور تدفع عن زائرها الضر وتكشف عنه السوء وتدر عليه الرزق وتكبت العدو ، إما بتصرفهم فى الخلق وإما لأنهم قربان عند الرب ولا يرون شيئا من هذا ناقضا للايمان الصحيح وفى مثلهم يقول الله عز اسمه « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

(قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟) أى أتجادلوننى فى شأن الله وما يجب

فى الإيمان به ، وهو قد فضلنى عليكم بما هدانى إلى التوحيد الخالص و بما بصرنى به من الحجة التى أقمتها عليكم ، وأنتم الضالون بإصراركم على شرككم وتقليدكم فيه من قبلكم ؟.

(ولا أخاف ما تشركون به) أى ولا أرهب من آلهتكم التى تدعونها من دون الله سوءا ينالنى فى نفسى ، ذلك أنى أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ولا تقرب ولا تشفع .

(إلا أن يشاء ربى شيئا) أى لا أخاف ما تشركون به فى وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى إصابة مكروه لى من جهتها فانه يقع لامحالة كما شاء ربى ، فإن شاء أن يَسقطَ على صنم يشجنى أو كسف من شهب الكواكب يقتلنى فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته لا بمشيئة الصنم أو الكواكب ولا بقدرته ولا بتأثيره فى قدرته تعالى وإرادته ولا بجاهه عنده وشفاعته ، إذ لا تأثير لشىء من المخلوقات فى مشيئة الله الجارية إلا بما يثبت فى علمه الأزلى .

(وسع ربى كل شىء علما) أى أحاط بكل شىء علما ، فلا يبعد أن يكون فى علمه سبحانه إنزال المكروه بى من جهتها بسبب من الأسباب ، وهذه الجملة كالعلة لقوله : إلا أن يشاء ربى شيئا .

(أفلا تتذكرون ؟) أى أتعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل فى أن آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضر ، فلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضرى ولا على إيصال النفع إليكم ، فالسلطة العليا له وحده ليس لغيره تأثير فيها ولا تدبير ، فإذا أعطى بعض المخلوقات شيئا من النفع أو الضر فلا يكون ذلك داعيا لرفعها عن رتبة المخلوقات وجعلها أربابا ومعبودات .

وكان يجب أن يفطن لذلك العقلاء ويتذكروه ، لأنه تذكير بما يدركه العقل بالبرهان ويهدى إليه الوجدان .

ومما يجب أن يتنبه له كثير من الذين ينتمون إلى ملة التوحيد أن هذا الضرب من الشرك الذى نعاه إبراهيم على قومه — لا يزال فاشيا بينهم فهم يعتقدون فى بعض المخلوقات

من أحياء وأموات أن لهم تصرفا غيبيا ، فما يقع عقب زيارتهم لهم من زوال مكروه أو نفع يصل إلى محبوب إنما كان بدعائهم ، والواقع أن ذلك بتقدير السميع العليم وليس لغيره فى ذلك تأثير لا جلىّ ولا خفى .

وبعد أن أبان لهم أنه لا يخاف شركاءهم بل يخاف الله وحده ، تعجب من تخويفهم إياه مالا يخيف وعدم خوفهم مما يجب أن يُخافَ منه قال :

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا) أى وكيف أخاف ما أشركتموه بربكم من خلقه فجعلتموه ندا له ينفع ويضر — ولا تخافون إشراككم بالله خالقكم مالم ينزل به حجة بينة بوحى ولا نظر عقل تثبت لكم جعله شريكا فى الخلق والتدبير أو فى الوساطة والشفاعة ، فافتياتكم على خالقكم بهذه الدعوى هو الذى يجب أن يخاف ويتقى .

والخلاصة — إن ما يدّعى لصحة هذا الخوف باطل ، وأنه عليه السلام لم يجد لهذا الخوف وجها فلا يخاف الشركاء لذواتهم ، ولا لما يزعمون من وساطتهم عند الله وشفاعتهم ، ولا لقدرة على الضر والنفع قد تدّعى لهم .

وقوله مالم ينزل به عليكم سلطانا — مذكور على طريق التهكم ، مع الإعلام بأن الدين لا يقبل إلا بالحجة والبرهان ، والتقليد ليس بعذر ولا سيما تقليد من ليس على هداية ولا علم ولا بصيرة ، والله لم ينزل بما ادعيتموه سلطانا لأنه باطل فلا سلطان عليه ولا دليل .

(فأى الفريقين أحق بالأمن) الفريقان فريق الموحدين الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه دون غيره ، وفريق المشركين الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب فاتخذوا ما اتخذوا من الآلهة والأرباب ونسبوا إلى بعضها النفع والضر كالشمس والقمر والملائكة — أى فأى هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته .

ونكتة التعبير (بأى الفريقين) دون أن يقول فأينا أحق بالأمن — الإشارة

إلى أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك لاخاصة به وبهم ، والبعد عن التصريح بخطئهم الذى ربما يدعو إلى اللجاج والعناد ، والاحتراس من تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله .

(إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم من أهل العلم والبصيرة فى هذا الأمر فأخبرونى بذاك وبينوه بالأدلة — وفى هذا إلجاء لهم إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحق والجهل .

ثم بين سبحانه الحقيق بالأمن على سبيل التفصيل فقال :

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) المراد بالظلم الذى يلبس به الإيمان بالله ويخالطه فينقص منه أو ينقضه هو الشرك فى العقيدة أو العبادة كاتخاذ ولى من دون الله يدعى معه أو من دونه ، فيعظّم كتعظيمه ويُحب كحبه للاعتقاد أن له نفعا أو ضرا بذاته أو بتأثيره فى مشيئة الله وقدرته ، لا ظلم الإنسان نفسه بفعل بعض المضار أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال ، ولاظلمه لغيره ببعض التصرفات والأحكام ، يدل على هذا التفسير ما رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هــذه الآية شق ذلك على الناس وقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » إنما هو الشرك . والمراد بالأمن الأمن من عذاب الله الذى يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته .

أى إن الذين آمنوا بالله تعالى ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به سبحانه وتعالى ، أولئك لهم الأمن دون غيرهم من الخلود فى دار العذاب ، وهم فيما وراء ذلك بين الخوف والرجاء .

وهذا جواب من الله به فصل القضاء بين إبراهيم ومن حاجه من قومه كما اختاره ابن جرير ونقله عن ابن اسحق وابن زيد من المفسرين .

(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) أى وتلك الحجة الدامغة التى تضمنت البيان السالف ، المثبتة للحق ، المزيفة للباطل ، هى الحجة التى أرشدنا إليها إبراهيم وأعطيناها إياه ليلزم قومه ويقنعهم بها .

(نرفع درجات من نشاء) أى إنما نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكونوا على درجة منها ، فالعلم درجة كمال ، والحكمة درجة كمال ، وقوة العارضة فى الحجاج درجة كمال ، والسيادة والحكم بالحق كذلك ، والنبوة والرسالة أعلى كل هذه الدرجات لأنها تشتمل عليها وتزيد .

والله هو الذى يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى مابه ترتقى درجته ، وإلى صرف موانع هذا الارتقاء عنه . ويؤتى ذا الدرجة الوهبية (النبوة) مالم يؤت غيره من أهل المناقب والآيات « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » .

(إن ربك حكيم عليم) أى إن ربك الذى رباك وعلمك وهداك وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ، حكيم فى قوله عليم بشئونهم ، وسيريك ذلك عيانا فى سيرتك مع قومك كما أراكه بيانا فيما حدث عن إبراهيم مع قومه ، وتأسّ فى نفسك وقومك المكذبين بأبيك واصبر على ما ينوبك منهم كما صبر .

واعلم أن معرفة الله تعالى لا تحصل على الوجه الصحيح إلا بتعليم الوحى ، وعلم الأنبياء به ضرورى لا نظرى فقد علمهم به مالم يكونوا يعلمون من الحجج العقلية والدلائل النقلية إلى نحو ذلك مما هداهم إليه .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ

الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠) .

المعنى الجملى

اعلم أنه سبحانه بعد أن حكى عن إبراهيم صلوات الله عليه أنه أظهر حجة الله فى التوحيد وعدّد وجوه نعمه وإحسانه إليه ، ذكر هنا أنه جعله عزيزا فى الدنيا إذ جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من ذريته وأبقى هذه الكرامة له إلى يوم القيامة .

الإيضاح

(ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا) أى ووهبنا لإبراهيم إسحاق نبيا من الصالحين وجعلنا من ذريته يعقوب نبيا منجبا للأنبياء والمرسلين ، وهدينا كلا منهما كما هدينا إبراهيم بما آتيناه من النبوة والحكمة وقوة العارضة والحجة .

وإنما ذكر إسحق دون إسماعيل لأنه هو الذى وهبه الله تعالى بآية منه بعد كبر سنه وعقم امرأته سارّة جزاء إيمانه وإحسانه وكمال إسلامه وإخلاصه بعد ابتلائه

بذبح ولده إسماعيل ولم يكن له ولد سواه على كبر سنه ، ويقول المؤرخون إن معنى (إسحق) الضحاك ، وأنه ولد وكانت سن أبيه مائة واثنتى عشرة سنة ، وسن أمه تسعا وتسعين سنة ، وأنه عاش ثمانين ومائة سنة .

(ونوحا هدينا من قبل) أى وهدينا جده نوحا إلى مثل ما هدينا له إبراهيم وذريته فآتيناه النبوة والحكمة وهداية الخلق إلى طريق الرشاد .

والمراد بذلك أن نسب إبراهيم من أشرف الأنساب ، إذ قد رزقه الله أولادا مثل إسحق ويعقوب وجعل أنبياء بنى إسرائيل من نسلهما ، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين كنوح وإدريس وشيث ، فهو كريم الآباء شريف الأبناء .

(ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين) .

الضمير فى ذريته يعود إلى إبراهيم ، لأن الكلام فى شأنه بذكر ما أنعم الله عليه من فضل ، وإنما ذكر نوحا لأنه جده فهو كما قدمنا يرشد إلى فضل الله عليه فى أصوله وفروعه ، ولأن الله جعل الكتاب والنبوة فى نسلهما معا كما جاء فى سورة الحديد : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ » أى وهدينا من ذريته داود وسليمان الخ . وقد ذكر الله فى هذه الآيات أربعة عشر نبيا لم يرتبهم على حسب أزمانهم ولا على حسب فضلهم لأن الكتاب قد أنزل ذكرى وموعظة للناس لا تاريخا تفصل وقائعه مرتبة على حسب وجودها ، وقد التمس بعض العلماء حكمة لهذا الترتيب فقال : إن الله تعالى جعل الأنبياء ثلاثة أقسام يجمع بين كل قسم منها معنى مشترك :

(١) داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وأولئك قد آتاهم الله الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة ، فداود وسليمان كانا ملكين غنيين ، وأيوب كان أميرا غنيا محسنا ، ويوسف كان وزيرا عظيما وحاكما متصرفا

ولكن هذين ابتليا بالضراء فصبرا كما ابتليا بالسرّاء فشكرا ، وموسى وهرون كانا حاكمين ولم يكونا ملكين ، وقد ذكرهم القرآن على طريق الترقى فى هدى الدين فأفضلهم موسى وهرون ثم أيوب ويوسف ثم داود وسليمان ، وقوله وكذلك نجزى المحسنين أى بالجمع بين نعم الدنيا والرياسة وبين هداية الدين وإرشاد الخلق .

(٢) زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، وهؤلاء كانت لهم ميزة الزهد والإعراض عن لذات الدنيا والرغبة عن زينتها وسلطانها ، ومن ثم خصهم بوصف الصالحين وإن كان كل نبى صالحاً ومحسنا .

(٣) إسماعيل واليسع ويونس ولوطا، وهؤلاء لم يكن لهم من ملك الدنيا ما كان للقسم الأول ، ولا من المبالغة فى الزهد ما كان للقسم الثانى ، وقد قفى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذى جعله الله لكل نبى على عالمى زمانه ، فمن كان منهم منفرداً فى قوم كان أفضلهم على الإطلاق وإن وجد نبيان أو أكثر فى قوم كانوا أفضلهم وربما كانوا متفاضلين فى أنفسهم ، فإبراهيم أفضل من لوط المعاصر له وموسى أفضل من أخيه هرون الذى كان وزيره ، وعيسى أفضل من ابن خالته يحيى صلوات الله عليهم أجمعين اه .

(ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) أى وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم لا كلهم، إذ أن بعض هؤلاء الأقربين لم يهتد بهدى ابنه أو أبيه أو أخيه ، ألا ترى إلى أبى إبراهيم وابن نوح قال تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

(واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) يقال اجتبى فلان فلانا لنفسه إذا اختاره واصطفاه ، واجتباء الله العبد : تخصيصه إياه بفيض إلهى يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى منه كما يحدث للأنبياء والصديقين والشهداء : أى فضلنا كلا على العالمين واخترناهم وهديناهم إلى الصراط المستقيم .

(ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) أى ذلك الهدى الذى هديت به من سميت من الأنبياء والرسل فوفقتهم به لإصابة الدين الحق الذى به رضا ربهم وشرف الدنيا وكرامة الآخرة ــ هو هدى الله الخاص وتوفيقه ولطفه الذى يوفق به من يشاء حتى ينيب إلى طاعته ويخلص العمل له ويقر بالتوحيد ويرفض الأوثان والأصنام .

والهداية ضربان: ضرب ليس لصاحبه سعى فيه ولا هو مما ينال بالكسب وهو النبوة وهو ما أشير إليه بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ». وضرب آخر ينال بالكسب والاستعداد مع اللطف الإلهى والتوفيق لنيل المراد .

ثم ختم سبحانه الآية بنفى الشرك وتقرير التوحيد فقال :

(ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) أى ولو أشرك أولئك المهديون بربهم فعبدوا معه غيره لبطل أجر أعمالهم التى يعملونها ، لأنه قد زال أفضل أعمالهم الذى هو الأساس لرفع درجاتهم ، إذ توحيد الله تعالى هو المزكى للأنفس ، فضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدسى لها والمفسد لفطرتها فلا يبقى معه فائدة لعمل آخر يترتب عليه به نجاتها وفلاحها .

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) المراد بالكتاب ما ذكر فى القرآن من صحف إبراهيم وموسى وزبور داود وإنجيل عيسى، والحكم: العلم والفقه فى الدين ، وكل نبى آتاه الله العلم الصحيح والفقه فى أمور الدين وشئون الإصلاح وفهم الكتاب الذى تعبده به سواء أنزله عليه أم أنزله على غيره ، واختص بعضهم بإيتائه الحكم صبيا كيحيى وعيسى أى بإعطائه ملكة الحكم الصحيح فى الأمور .

وأما الحكم بمعنى القضاء والفصل فى الخصومات فلم يعطه إلا بعض الأنبياء .

أى إن أولئك الأنبياء الذين ذكرت أسماؤهم أوتوا الحكم والقضاء بين الناس لفصل الخصومات ، وذلك مستلزم للعلم والفقه وتكون هذه العطايا الثلاث مرتبة على

حسب درجات الخصوصية ، فبعض النبيين أوتى الثلاث كابراهيم وموسى وعيسى وداود ، قال تعالى حكاية عن إبراهيم : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً » فهو قد دعا هذا الدعاء وهو رسول عليهم بعد محاجة قومه ، وقال حكاية عن موسى : « فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » وقال عز اسمه : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » وقال فى داود وسليمان معا : « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » .

ومنهم من أوتى الحكم والنبوة كالأنبياء الذين كانوا يحكمون بالتوراة ، ومنهم من لم يؤت إلا النبوة فقط .

والخلاصة — إن كل من أوتى الكتاب أوتى الحكم والنبوة ، وكل من أوتى الحكم ممن ذكر كان نبيا ، وما كل نبى منهم كان حاكما ولا صاحب كتاب منزل ، وهذه هى مراتب الفضل بينهم صلوات الله عليهم .

(فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) أى فإن يكفر بتلك الثلاث الكتاب والحكم والنبوة ـ هؤلاء المشركون من أهل مكة فقد وكلنا برعايتها ، ووفقنا للايمان بها ، وتولى نصر الداعى إليها قوما كراما ليسوا بكافرين بها ، فمنهم من آمن بها ومنهم من سيؤمن عند ما يدعى إليها .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : « فإن يكفر بها هؤلاء » يعنى أهل مكة ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين يعنى أهل المدينة والأنصار اهـ .

والذى عليه المعول — أن الموكلين بها هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلقا ، فإن المهاجرين قد كانوا أول من آمن بها وكانوا بعد الهجرة فى المقدمة فى كل عمل وجهاد ، ولكن الأنصار هم المقصودون بالذات ، لأن القوة والمنعة لم تكن إلا بهم ، ومن ثم قال : « لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » والأنصار لم يكونوا عند نزول هذه السورة مؤمنين .

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الهدى ضد الضلال ، ويطلق شرعا على الطريق الموصل إلى الحق وهو الطريق المستقيم الذى نطلبه فى صلاتنا — وعلى سلوك ذلك الطريق والاستقامة فى السير عليه .

أى إن أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم فى الآيات السالفة ، والذين وصفهم الله بإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة — هم الذين هداهم الله هداية كاملة فبهداهم دون ما يخالفه من أعمال غيرهم ، اقتد أيها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك مما بعثت به من تبليغ الدعوة وإقامة الحجة والصبر على التكذيب والجحود وإيذاء أهل العناد ومقلدى الآباء والأجداد وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال، كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والزهد والسخاء والحكم بالعدل قال تعالى : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » وقال : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ » .

والخلاصة — إن الله تعالى أمره بالاقتداء بهم فى الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم — وقد كان مهتديا بهداهم كلهم فكانت مناقبه وفضائله الكسبية أعلى من مناقبهم وفضائلهم لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم — إلى ما أوتيه دونهم ، ومن ثم شهد له ربه بما لم يشهد به لأحد منهم فقال « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وكذلك فضائله الموهوبة هى فيه أظهر وأعظم، فبعثته عامة للناس أسودهم وأحمرهم وبه ختمت النبوة والرسالة ، وكمال الأشياء فى خواتيمها ، صلوات الله عليهم أجمعين.

(تنبيه) ذكر بعض العلماء أن الأنبياء المرسلين الذين ذكروا فى القرآن ويجب الإيمان بهم تفصيلا خمسة وعشرون هم الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم فى هذه الآيات ، والسبعة الآخرون هم آدم أبو البشر وإدريس ولوط وصالح وشعيب وخاتم الجميع محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وليس فى القرآن نص قطعى صريح فى رسالة آدم عليه السلام ، بل مفهوم قوله : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » أن نوحا أول نبى مرسل أوحى الله إليه رسالته وشرعه ، وكذلك حديث الشفاعة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء فاشفع لنا إلى ربك حتى تريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لهم آدم لست هنا كم – ويذكر ذنبه الذى أصابه فيستحى من ربه عز وجل – ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى الأرض فيأتون نوحاً ... » الخ .

والخلاصة — إن الآية تدل على أن أول رسول شرع الله على لسانه الأحكام والحلال والحرام هو نوح عليه السلام .

ويرى بعض العلماء أن آدم كان على هدى من ربه ربى عليه أولاده وبشرهم بالثواب وأنذرهم بالعقاب، وهذه هداية من جنس هداية الله للنبيين والمرسلين التى بلغوها أقوامهم ولا ندرى كيف هدى الله تعالى آدم إليها ، فإن طرق الهداية متعددة ، وقد تكون هى هداية الفطرة .

ونوح ومن بعده أرسلوا إلى من فسدت فطرتهم فأعرضوا عما دعوا إليه ، وهذه هى الرسالة الشرعية التى يسمى من جاء بها رسولا دون الأولى .

(قل لا أسألكم عليه أجرا) أى قل أيها الرسول لمن بعثت إليهم : لا أسألكم على هذا القرآن الذى أمرت أن أدعوكم إليه وأذكركم به أجرا من مال ولا غيره من المنافع ، كما أن جميع من قبلى من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى وقد تكرر هذا الأمر له صلى الله عليه وسلم فى سور متعددة كقوله : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ماهو إلا تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لا لكم خاصة ، وفى هذا تصريح بعموم بعثته صلوات الله عليه للناس جميعا أسودهم وأحمرهم .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) .

شرح المفردات

قدْر الشيء ومقداره : مقياسه الذى يعرف به ، ويقال قدره يقدره : إذا قاسه ، والقدر والقدرة والمقدار : القوة أيضا ، والقدر : الغنى واليسار والشرف ، قراطيس : ما يكتب فيه من ورق أوجلد أو غيرهما ، البركة : الزيادة والسعة ، ومبارك : بارك الله فيه بما فضل به ما قبله من الكتب فى النظم والمعنى ، وأم القرى مكة ، وسميت بذلك لأنها قبلة أهل القرى أو لأنهم يعظمونها كالأم ، أو لأن فيها أول بيت وضع للناس .

الإيضاح

(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) أى ما عرفوه حق معرفته ، فإن منكرى الوحى الذين يكفرون برسل الله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه حق صفته ،

ولا آمنوا بقدرته على إفاضة ما شاء من علمه بما يصلح به أمر الناس من الهدى والشرائع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة أو بتكليمه إياهم بدون واسطة ، وهم قد أنكروا الوحى وجهلوا فضل البشر وقالوا ما أنزل الله على أحد منهم شيئاً .

ومن عرف حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة وعلمه المحيط بكل شىء ونظر فى آياته فى الأنفس والآفاق وعلم أنه أحسن كل شىء خلقه وخلق الإنسان مستعدا للصعود إلى أعلى عليين والهبوط إلى أسفل سافلين ، وجعل كماله أثرا لعلومه وأعماله الكسبية التى عليها مدار حياته الدنيوية والأخروية — علم أن الإنسان مهما ارتقت معارفه لا يمكن أن يصل إلى الكمال الذى يؤهله لنيل السعادة الأبدية إلا إذا اهتدى بهدى النبيين والمرسلين ، فإن إرسالهم وإنزال الوحى عليهم وإرشادهم للناس سبب لكل ارتقاء إنسانى فى حياتيه الجسمانية والروحية ، فبذلك تذهب الضغائن والأحقاد من القلوب ويزول الخلاف والشقاق بين الناس ويعيشون فى وفاق ووئام علما منهم بأن هناك سلطة عليا ترقب أعمالهم وتحاسبهم على النقير والقطمير فى ذلك اليوم العبوس القمطرير ، وتجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ثم لقن الله رسوله الرد على منكرى الوحى والرسالة من مشركى قريش ، إثر بيان كون ذلك من شئونه تعالى ومن مقتضى نظام حياة البشر .

وقد كان أولئك المشركون يعلمون أن اليهود هم أصحاب التوراة المنزلة على موسى ، فقد أرسلوا إلى المدينة وفدا زعيماه النضر بن الحرث وعقبة بن أبى معيط ليسألوا الأحبار عما يعلمون عن محمد وصفته لأنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عند غيرهم من علم الأنبياء ، فلما أتوا إلى أولئك الأحبار سألوهم عنه فأنكروا معرفته وبذا يكون الاحتجاج عليهم بإنزال التوراة على موسى احتجاجا ملزما لهم ودافعا لإنكارهم فقال :

(قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس

تبدونها وتخفون كثيرا) أى قل لقومك الذين لم يقدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل على بشر من شىء ، وقالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا انقشعت به ظلمات الشرك الذى ورثه بنو إسرائيل عن المصريين ، وهدى للناس الذين جاء لتبليغ رسالته إليهم فأخرجهم من الضلال إلى نور الحق وصاروا خلقا آخر اعتصم بالحق والعدل - حتى اختلفوا فيه ونسوا حظا مما ذكروا به واتبعوا أهواءهم وجعلوه قراطيس يبدونها عند الحاجة ، فإذا استفتى الحبر من أحبارهم فى مسألة له هوى فى إظهار حكم الله فيها كتب ذلك الحكم فى قرطاس وأظهره للمستفتى ولخصومه، ويخفون كثيرا من أحكام الكتاب وأخباره إذا كان لهم هوى فى إخفائها.

وسبب هذا أن الكتاب كان بأيديهم ولم يكن فى أيدى العامة نسخ منه ، وهذا الإخفاء لنصوص الوقائع غير ما نسيه متقدمو اليهود من الكتاب بضياعه عند تخريب بيت المقدس وإجلاء اليهود إلى العراق وهو ما أشار إليه تعالى بقوله : « فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » وقد أخفى أحبار اليهود حكم الرجم بالمدينة وأخفوا ماهو أعظم من ذلك وهو البشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم وكتمان صفاته عن العامة وتحريفها إلى معان أخرى للخاصة فلقن الله رسوله أن يقرأ هذه الآية على مسمع من اليهود وغيرهم بالخطاب لهم فيقول : (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) .

(وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) قال مجاهد هذا خطاب للعرب ، وفى رواية عنه للمسلمين ومآلهما واحد فإن ما علمه العرب من علوم القرآن وحكمه وهدايته قد أدوه إلى سائر المسلمين من غيرهم فكانت فائدته عامة لجميع من أظلهم الاسلام بظله .

وفى ذلك امتنان منه سبحانه على الرسول وقومه وسائر المسلمين بإتيانهم هذا الكتاب الكريم الذى بسط فيه أصول العقائد مؤيدة بالدلائل وتمم به مكارم الأخلاق وأمهات الفضائل ، وجعل فيه من العبادات ما يزكى النفوس ويطهرها ، ومن المعاملات ما فيه المنافع للأفراد والجماعات وأوجب فيه المساواة بين الأجناس والديانات فلا يحابى مسلم لإسلامه ولا يظلم كافر بكفره .

و بعد أن بين سبحانه إنكار المنكرين للوحى بعبارة تدل على جهلهم وترشد إلى البرهان المكذب لدعواهم وشفعه بأمر الرسول أن يسألهم ذلك السؤال الذى أفحمهم وألقمهم حجرا - لقنه الجواب الذى كان يجب أن يجيبوا به لو أنصفوا وذلك قوله :

(قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى قل لهم أيها الرسول : الله أنزله على موسى ، ثم دعهم بعد هذا البيان المؤيد بالحجة والبرهان ، فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم بآيات الله حال كونهم يلعبون كما يلعب الصبيان .

وفى أمر الرسول بالجواب عما سئلوا عنه إيماء إلى أنهم لا ينكرونه ، لما فى ذلك من المكابرة ومافى الاعتراف من الخزى إذا هم أقروا بما يجحدون من الحق .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) أى هذا القرآن كتاب عظيم القدر أنزلناه على خاتم رسلنا كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى وقد باركنا فيه فجعلناه كثير الخير دائم البركة والمنفعة يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، مصدقا لما تقدمه من كتب الأنبياء فى الجملة لا بكل ما يعزى إليها على وجه التفصيل ، وقد ذكر فيه بعضها بأسمائها والصحف ومضافة إلى أصحابها ونعى على بعض أهلها تحريفهم لها ونسيانهم حظا منها .

(ولتنذر أم القرى ومن حولها) أى ولتنذر به عذاب الله و بأسه أهل مكة ومن حولهم من بلاد العالم جميعا كما روى عن ابن عباس .

وجعلت حولها لأن الناس فى جميع بقاع الأرض القريبة من مكة والبعيدة منها يصلون وهم متوجهون إلى البيت الحرام فيها .

وقد ثبت عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى هذه السورة : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » أى وكل من بلغه ووصلت إليه هدايته ، وقوله فى سورة الفرقان : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً » وقوله فى سورة سبأ : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً » .

(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) أى ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد إلى الله فى الآخرة ويصدق بالثواب والعقاب فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذى أنزلناه إليك ويقر به سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم إذا بلغتهم دعوته ، لأنهم يجدون فيه أكمل الهداية إلى السعادة العظمى فى تلك الدار ، وما مثلهم إلا مثل قوم ساروا فى الفيافى والقفار وضلوا الطريق حتى إذا كادوا يهلكون قابلهم الدليل الخرّيت العالم بخفاياها ، والخبير بذرعها ومعرفة مسالكها ، فأرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وخلاصهم من هلاك محقق إذا هم اتبعوا مشورته ، وسلكوا سبيله ، فقبلوا نصحه وكانوا من الفائزين .

وأما الذين ينكرون البعث والجزاء فلا حاجة لهم إلى هدايته .

وفى هذا تصريح بسبب إعراض الجمهرة من أهل مكة عن هذا الكتاب الذى فيه سعادتهم ، وتنبيه إلى أنهم لما يعتقدوا فى البعث والجزاء امتنعوا عن قبول هذا الدين ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

(وهم على صلاتهم يحافظون) فيؤدونها فى أوقاتها ، ويقيمون أركانها وآدابها ، وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لأنها عماد الدين ، وأسس العبادات والمقوية للإيمان ، وكمال الإذعان ، والمحافظة عليها تدعو إلى القيام بسائر العبادات المفروضة ، وترك جميع المحرمات ، ومحاسبة النفس على لذاتها وشهواتها .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ، وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ

مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) .

شرح المفردات

الافتراء: اختلاق الكذب، وافتراء الكذب على الله : الاختلاق عليه والحكاية عنه مالم يقله ، أو اتخاذ الأنداد والشركاء ، والغمرات : واحدها غمرة ، وهى الشدة ، واليوم : الزمن المحدود ، والمراد به هنا يوم القيامة الذى يبعث الله فيه الناس للحساب والجزاء ، والهون (بالضم) والهوان الذل ، ومنه قوله : « أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ » والهون (بالفتح) اللين والرفق ، ومنه قوله : «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » وفرادى : واحدهم فرد ، وخولناكم : أعطيناكم ، والترك وراء الظهر : يراد به عدم الانتفاع بالشىء ، والبين : الصلة ، والمسافة الحسية أو المعنوية الممتدة بين شيئين أو أشياء ، و يضاف إلى المثنى كقوله : « فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أو الجمع كقوله : « أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ » ولا يضاف إلى المفرد إلا إذا كرر نحو : « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » وضل عنكم أى غاب عنكم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن القرآن كتاب من عند الله ، ورد على الذين أنكروا إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر ، بأن مثله مثل التوراة التى يعترفون بإنزالها على موسى وهو بشر .

قفى على ذلك بوعيد من كذب على الله وادعى النبوة والرسالة ، أو ادعى أنه قادر على الإتيان بمثل هذا القرآن ، وهذا الوعيد يتضمن الشهادة بصدق النبى صلى الله عليه وسلم .

ذاك أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إذا لم يكن له بد من الإيمان بأن القرآن من عند الله ، ومن الاهتداء به ، فأ كمل الناس إيمانا بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء هو محمد صلى الله عليه وسلم لايمكن أن يعرض نفسه لمنتهى العلم الذى يستحق عليه أشد العذاب .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله كالذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، أو جعل لله شريكا أو ولدا .

(أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء) كمسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة باليمامة ، والأسود العنسى الذى ادعى النبوة باليمن ، وطُليحة الأسدى الذى ادعى النبوة فى بنى أسد ، ونحوهم من كل من ادعى ذلك أو يدعيه فى أى زمان كان .

(ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) أى ومن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله على رسوله كمن قال من المشركين : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » فقد أثر عن النضر بن الحرث أنه كان يقول : إن القرآن أساطير الأولين ، و إنه شعر لو نشاء لقلنا مثله .

ثم ذكر تعالى وعيد الظالمين لشديد جرمهم وعظيم ذنبهم فقال :

(ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ثم لكل من سمعه أو قرأه ، أى لو تبصر إذ يكون الظالمون ـ سواء منهم من ذكروا فى الآية أو غيرهم ـ فى غمرات الموت وهى سكراته ومايتقدمها من شدائد وآلام تحيط بها كما تحيط غمرات الماء بالغرق ـ لرأيت مالاسبيل إلى وصفه ، ولا قدرة للبيان على تجلى كنهه وحقيقته .

(والملائكة باسطو أيديهم) لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب كما قال : « فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ » .

ثم حكى سبحانه أمر الملائكة لهم على سبيل التهكم والتوبيخ حين بسط أيديهم لقبض أرواحهم .

(أخرجوا أنفسكم) أى أخرجوا أنفسكم مما هى فيه إن استطعتم ، أو أخرجوها من أبدانكم .

قال صاحب الكشاف — هذا تمثيل لفعل الملائكة فى قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملحّ يبسط يده إلى من عليه الحق ليعنفه عليه فى المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج مالى عليك الساعة ، ولا أريم ـ لا أبرح ـ مكانى حتى أنزعه من أحداقك . ويرى بعضهم أنه لاداعى للعدول عن الحقيقة إلى التمثيل ، فربما تمثل الملائكة للبشر بمثل صورهم ، وتخاطبهم بمثل كلامهم فهى إذا ممكنة على الحقيقة فلا معدل عنها .

(اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) أى تقول لهم الملائكة وقت الموت : اليوم تلقون عذاب الذل والهوان جزاء ظلمكم لأنفسكم بسبب ما كنتم تقولون مفترين على الله غير الحق ، كقول بعضهم ما أنزل الله على بشر من شىء ، وقول بعض آخر : إنه أوحى إليه ولم يوح إليه شىء ، وإنكار طائفة لما وصف الله به نفسه من الصفات ، واتخاذ أقوام له البنين والبنات ، واستكبار آخرين عن الاعتراف بما أنزل الله من الآيات ، احتقارا لمن أكرمه الله بإظهارها على يده ولسانه .

ثم ذكر ما يقوله الله لهم يوم القيامة بعد ذكر ما تقول لهم ملائكة العذاب فقال :

(ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) أى ولقد جئتمونا وحدانا منفردين عن الأنداد والأوثان والأهل والإخوان ، مجردين من الخدم والأملاك والأموال ، كما خلقناكم أول مرة من بطون أمهاتكم حفاة عراة غلفا ؛ ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله : « وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لأن المراد لا يكلمهم تكليم تكريم ورضا .

(وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) أى إن ما كان شاغلا لكم من المال والولد والخدم والحشم والأثاث والرياش عن الإيمان بالرسل ، والاهتداء بما جاءوا به

لم ينفعكم كما كنتم تتوهمون ، فهو لم يغن عنكم شيئا ولم يمكنكم الافتداء به أو ببعضه من عذاب الآخرة .

(وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى وما نبصر معكم شفعاءكم من الملائكة والصالحين من البشر ، ولا تماثيلهم وقبورهم ، وقد زعمتم فى الدنيا أنهم شركاء لله تدعونهم ليشفعوا لكم عنده ويقربوكم إليه زلفى بتأثيرهم فى إرادته وحملهم إياه على مالم تتعلق به إرادته فى الأزل .

وفى هذه الجملة والتى قبلها هدم لقاعدتين من قواعد الوثنية وهما الفداء والشفاعة .

(لقد تقطع بينكم) أى لقد تقطع ما كان بينكم من صلات النسب والملك والولاء والصداقة .

(وضل عنكم ما كنتم تزعمون) أى وغابت عنكم شفاعة الشفعاء ، وتقريب الأولياء وأوهام الفداء ، وقد علمتم بطلان غروركم واعتمادكم على غيركم .

والخلاصة — إن آمالكم قد خابت فى كل ما تزعمون وتتوهمون ، فلا فداء ولا شفاعة ، ولا ما يغنى عنكم من عذاب الله من شىء .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ

مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) .

شرح المفردات

الفلق والفرق والفتق : الشق ، والحب : الحنطة وغيرها مما يكون فى السنبل والأكمام ، والنوى واحدها نواة : وهى ما يكون فى داخل التمر والزبيب ، والإصباح : الصبح ، يقال أصبح الرجل : دخل فى وقت الصباح ، والسكن: السكون، ومايسكن فيه من مكان كالبيت وزمان كالليل ، وما يسكن الإنسان ويطمئن إليه استئناسا به من زوج أو حبيب ، والحساب (بالكسر) والحسبان (بالضم) استعمال العدد فى الأشياء والأوقات، والمستقر: موضع القرار والإقامة كما قال : « وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » والمستودع: موضع الوديعة، وهى مايتركه المرء عند غيره ليأخذه بعد، والفقه: النظر فى عمق الشيء وباطنه ، خضرا أى نباتا غضا أخضر ، متراكبا: أى بعضه فوق بعض ، والنخل والنخيل واحدهما نخلة ، والطلع : أول ما يطلع أى يظهر من زهرها قبل أن ينشق عنه غلافه ، والقنوان واحدها قنو : وهو العذق الذى يكون فيه الثمر ، وهو من النخل كالعنقود من العنب والسنبلة من القمح، ودانية : أى قريبة التناول، مشتبها وغير متشابه : أى متشابها فى بعض الصفات وغير متشابه فى بعض آخر ، وينعه أى حين يينع ويبدو صلاحه وينضج .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه أمر التوحيد ، ثم أردفه بتقرير أمر النبوة والبعث ، وذكر مسائل لها ملابسات لهذه الأصول ، عاد هنا وفصل طائفة من آيات التكوين

تدل أوضح الدلالة على وحدانيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ، و بيان سننه فى خلقه وحكمه فى الإحياء والإماتة والأحياء والأموات ، وتقديره وتدبيره لأمر النيرات فى السموات ، و إبداعه فى شئون النبات .

الإيضاح

(إن الله فالق الحب والنوى) أى إن الله فالق ماتزرعون من حب الحصيد ونوى الثمر ، وشاقه بقدرته وتقديره بربط الأسباب بمسبباتها كجعل الحب والنوى فى التراب و إرواء التراب بالماء .

وفى ذلك إيماء إلى كمال قدرته ، ولطيف صنعه ، و بديع حكمته .

(يخرج الحى من الميت) أى يخرج الزرع من نجم وشجر وهو متغذٍّ نامٍ، من الميت وهو مالا يتغذى ولا ينمى من التراب والحب والنوى وغيرهما من البذور ، و يخرج الحيوان من البيضة والنطفة .

وعلماء المواليد يزعمون أن فى أصول الأحياء حياة ، فكل ما ينبت من الحب والنوى فهو ذو حياة كامنة ، إذ أنه لو عقم بالصناعة لا ينبت ، واصطلاحهم لا تسيغه اللغة ، إذ أنها لا تجعل الحى إلا الجسم النامى المتغذى بالفعل ، وهذه أقل مراتب الحياة عندهم ، و يليها مراتب أخرى أعلاها مرتبة الإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام ، وفوق كل هذه المراتب حياة الخالق التى هى مصدر كل حياة وحكمة ونظام فى الكون .

(ومخرج الميت من الحى) كالحب والنوى من النبات والبيضة ، والنطفة من الحيوان ، قال الزجاج : يخرج النبات الغض الطرىّ الخضر من الحب اليابس، و يخرج اليابس من النبات الحى النامى ، وقال ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن كما فى ابن نوح .

قال الطبيب التقى عبد العزيز إسماعيل باشا طيب الله ثراه : قيل فى تفسير ذلك

كإنشاء الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، ولكن النطفة حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حى من حى فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والله أعلم .

والتفسير الحقيقى — هو إخراج الحى من الميت كما يحصل يوميا من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء ميت ، ولا شك أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه ، هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن النعجة مثلا تتغذى بالنبات وتحوله إلى لحمها ، وهذه أهم علامة تدل على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحى .

وأما إخراج الميت من الحى فهو الإفرازات مثل اللبن : (وإن شئت فلحوم الحيوانات أيضا والنباتات ، فإن اللبن سائل ليس فيه شىء حى ، بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحى ، وهكذا ينمو الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، والله أعلم بمراده اهـ .

(ذلكم الله فأنى تؤفكون) أى ذلكم الله المتصف بكامل القدرة وبالغ الحكمة هو الله الخالق لكل شىء المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به من لا يقدر على شىء من ذلك كفلق نواة وحبة وإيجاد نخلة وسنبلة .

(فالق الإصباح) فلق الصبح : هو فلق ظلمة الليل وشقها بعمود الصبح الذى يبدو فى جهة مطلع الشمس من الأفق مستطيلا ، ولا يعتد به حتى تنقشع الظلمة عنه من أمامه وعن جانبيه حتى تزول .

(وجعل الليل سكنا) أى جعله يستريح فيه المتعب من العمل بالنهار ويسكن فيه ، والسكون يعم سكون الجسم وسكون النفس بهدوء الخواطر والأفكار .

والليل وقت السكون ، لأنه لا يتيسر فيه من الحركة وأنواع الأعمال ما يتيسر في النهار لما خص به الليل من الإظلام والنهار من الإبصار .

وأكثر الأحياء من الإنسان والحيوان تترك العمل والسعي في الليل وتأوي إلى مساكنها للراحة التي لا تتم ولا تكمل إلا بالنوم الذي تسكن فيه الجوارح والخواطر ببطلان حركتها الإرادية ، كما تسكن به الأعضاء سكونا نسبيا ، فتقل نبضات القلب ، ويقل إفراز خلايا الجسم للسوائل والعصارات التي تفرزها ، ويبطئ التنفس ويقل ضغط الدم في الشرايين ، ولا سيما أول النوم ويضعف الشعور حتى يكاد يكون مفقودا ، ويستريح الجهاز العصبي لتستريح جميع الأعضاء .

(والشمس والقمر حسبانا) أي يجريان بحساب وعدد لبلوغ أمدهما ونهاية آجالهما ، ويدوران لمصالح الخلق التي جعلا لها ، فطلوعهما وغروبهما وما يظهر من تحولاتهما واختلاف مظاهرهما — كل ذلك يجري بحساب كما قال : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقال : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » . وقد جمع الله في هذه الآية ثلاث آيات سماوية ، كما جمع فيما قبلها ثلاث آيات أرضية :

فالآية الأولى فلق الصبح والتذكير به للتأمل في صنع الله بإفاضة النور الذي هو مظهر جمال الوجود ، ومبدأ زمن تقلب الأحياء في القيام والقعود ، ومضيهم إلى ما يسروا له من الأعمال ، وما لله في ذلك من حكم وأسرار .

والآية الثانية جعل الليل سكنا ، وذلك نعمة من الله ليستريح الجسم وتسكن النفس وتهدأ من تعب العمل بالنهار ، قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

والآية الثالثة جعل الشمس والقمر حسبانا ، وذلك فضل من الله عظيم ، فإن حاجة الناس إلى معرفة حساب الأوقات لعباداتهم ومعاملاتهم وتواريخهم لا تخفى على أحد منهم .

وعلماء الفلك متفقون على أن للأرض حركتين ، حركة تتم فى أربع وعشرين ساعة ، وعليها مدار حساب الأيام ، وحركة تتم فى سنة ، وبها يكون اختلاف الفصول ، وعليها مدار حساب السنة الشمسية .

(ذلك تقدير العزيز العليم) أى وهذا الفعل العالى الشأن البعيد المدى فى الإبداع والإتقان — هو تقدير الخالق الغالب على أمره فى تنظيم ملكه بما اقتضاه واسع علمه وعظيم قدرته وحكمته ليس فيه جزاف ولا اختلاف: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ».

ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آيات التكوين العلوية وقرنها بذكر فائدتها فقال :

(وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) المراد بالنجوم هنا ما عدا الشمس والقمر من النيرات لأنه الظاهر من سياق الكلام ، ولأنه المعهود فى الاهتداء به .

وكانت العرب أيام بداوتها توقت بطلوع النجوم فتحفظ أوقات السنة بالأنواء وهى نجوم منازل القمر فى مطالعها ومغاربها .

وكان اهتداؤهم بالنجوم على ضربين :

(١) معرفة الوقت من الليل أو من السنة .

(٢) معرفة المسالك والطرق والجهات .

والمراد بالظلمات ظلمة الليل وظلمة الأرض أو الماء وظلمة الخطأ والضلال .

والمعنى — والله هو الذى جعل لكم النجوم أدلة فى البر والبحر إذا ضللتم الطريق أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا ، فبها تستدلون على الطرق فتسلكونها وتنجون من الخطأ والضلال فى البر والبحر .

والخلاصة — إنه تعالى ذكرنا ببعض فضله فى تسخيرهذه النيرات التى نراها صغيرة بعد أن ذكرنا ببعض فضله فى الشمس والقمر اللذين يريان كبيرين فى أعين الناس .

وقد جدت فى هذا العصر المراصد الفلكية ، واستحدثت آلات لتقريب الأبعاد وتحليل النور ، فعلم الشىء الكثير من سرعة الكواكب وأبعادها ، ومعرفة

مساحتها وكثافتها والمواد المؤلفة منها ، إلى نحو ذلك مما كان مجهولا من قبل ، فثبت لعلماء الفلك أن النجوم تعد بالملايين ، لـكنهم لم يتمكنوا إلى الآن إلا من معرفة أبعاد بعض مئات منها ، لأن باقيها أبعد من أن يعرف اختلاف فى مواقعه .

ولما فى عالم السموات من بديع الصنع ، وبديع النظام ختم سبحانه الآية بقوله :

(قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) والآيات هنا إما آيات التنزيل ، وإما آيات التكوين ، فإن كانت الأولى فالمعنى ـ إن هذه الآية وما قبلها وكل ما فى معناها من الآيات المنزلة فى الحث على النظر فى ملـكوت السموات تبين وتفصل حكم الله تعالى وعجائب صنعه ، فيزداد الإنسان بهذا البيان بحثا وعلما .

وإن كانت الثانية ، فالمعنى — إن الآيات الدالة على علم الله تعالى وقدرته وفضله على خلقه لا يستخرجها من النظر فى النجوم إلا أهل العلم الذين يقرنون العلم بالاعتبار ولا يكتفون بأن يقولوا بعد النظر والحساب : إن هذا لعجب عجاب .

وبعد أن ذكرنا سبحانه ببعض آياته فى الأرض والسماء ذكرنا بآياته فى أنفسنا فقال :

(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) الإنشاء إيجاد الشىء وتربيته ، أو إحداثه بالتدريج ، والنفس تطلق على الروح وعلى الشخص المركب من روح وبدن .

والمعنى — إنه تعالى هو الذى أنشأكم من نفس واحدة هى الإنسان الأول الذى تسلسل منه سائر الناس بالتوالد ، وهو آدم عليه السلام .

وفى إنشاء جميع البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته ، وفى التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر ، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل مدعاة إلى التآلف لا إلى التعادى والتقاتل وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس .

(فمستقر ومستودع) أى ولكم موضع استقرار فى الأصلاب ، وموضع استيداع فى الأرحام ، وإنما جعل الصلب مقر النطفة ، والرحم مستودعها ، لأن النطفة تتولد فى الصلب ابتداء ، والرحم شبيهة بالمستودع كما قال :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

(قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أى إننا جعلنا الآيات المبينة لسنننا فى الخلق مفصلة وموضحة لقدرتنا وإرادتنا وعلمنا وحكمتنا وفضلنا ورحمتنا ، لقوم يفقهون ما يتلى عليهم ، ويفهمون المراد منه ، ويفطنون لدقائقه وخفاياه .

وعبر هنا بالفقه وفيما قبلها بالعلم ، لأن استخراج الحكم من خلق البشر يتوقف على غوص فى أعماق الآيات وفطنة فى استخراج دقائق الحكم ، أما العلم بمواقع النجوم والاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر فهو من الأمور الظاهرة التى لاتتوقف على دقة النظر ، ولا غوص الفكر والتأمل فى العبرة منها ، وكذلك جميع المظاهر الفلكية.

ثم ذكر بعد ذلك آية أخرى من آيات التكوين وهى إنزال الماء من السماء وجعله سببا للنبات فقال :

(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا) أى وهو الذى أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب هذا الماء كل صنف من أصناف النبات المختلف فى شكله وخواصه وآثاره اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان كما قال : «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ» .

فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له شيئا غضا أخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة كساق النجم وأغصان الشجر ، نخرج منه أى من هذا الأخضر المتشعب النبات آنا بعد آن حبا متراكبا بعضه فوق بعض وهو السنبل .

وهذا تفصيل لنماء النجم الذى لا ساق له من النبات ونتاجه ، ثم عطف عليه حال نظيره من الشجر فقال :

(ومن النخل من طلعها قنوان دانية) أى ونخرج من طلع النخل قنوانا دانية القطوف سهلة التناول .

(وجنات من أعناب) أى ونخرج من ذلك الخضر جنات من أعناب .

(والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) أى وأخص من نبات كل شىء - الزيتون والرمان حال كون الرمان مشتبها فى بعض الصفات ، وغير مشتبه فى بعض آخر ، فإنها أنواع تشتبه فى شكل الورق والثمر ، وتختلف فى لون الثمر وطعمه ، فمنها الحلو والحامض والمزّ ، وكل ذلك دالّ على قدرة الصانع وحكمة المبدع جل شأنه .

(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) أى انظروا نظرة استبصار واعتبار إلى ثمر ما ذكر إذا أخرج ثمره ، وكيف يخرج ضئيلا لا يكاد ينتفع به ، وإلى ينعه ونضجه ، وكيف إنه يصير ضخما ذا نفع عظيم ولذة كاملة ، ثم وازنوا بين صفاته فى كل من الحالين ، يستبن لكم لطف الله وتدبيره ، وحكمته فى تقديره ، وغير ذلك مما يدل على وجوب توحيده .

(إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلكم الذى أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم ووحدته ، لمن هو مؤمن بالفعل ، ولمن هو مستعد للإيمان .

أما غيرهم فإن نظرهم لا يتجاوز الظواهر ولا يعدوها إلى ما تدل عليه من وجود الخالق ووحدته التى إليها ينتهى النظام ، فهم لا يغوصون ليصلوا إلى أسرار عالم النبات ، ولا يبحثون عن أن انتقاله من حال إلى حال على ذلك النمط البديع دال على كمال الحكمة ، وعلى أن وحدة النظام فى الأشياء المختلفة لا يمكن أن تصدر من إرادات متعددة .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ؟ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٦) .

شرح المفردات

فى اللسان : خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها : إذا ابتدعها كذبا ، وقال الراغب : الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد قال تعالى : « أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا » والخلق : فعل الشيء بتدبير ورفق، والبدع (بالكسر) والبديع: الشيء الذى يكون أولا ، ومنه البدعة فى الدين ، وقال الراغب : الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، والبديع من أسمائه تعالى لإبداعه الأشياء و إحداثه إياها ، والإدراك اللحاق والوصول إلى الشيء ، يقال تبعه حتى أدركه قال تعالى : « فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » والبصر حاسة الرؤية ، واللطيف من الأجرام : ضد الكثيف والغليظ ، واللطيف من الطباع: ضد الجافى ، واللطف فى العمل : الرفق فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه البراهين الدالة على توحده بالخلق والتدبير فى عالم السموات والأرض ــ ذكر هنا بعض ضروب الشرك التى قال بها بعض العرب وروى التاريخ مثلها عن كثير من الأمم ، وهى اتخاذ شركاء لله من عالم الجن المستتر عن العيون ، أو اختراع نسل له من البنين والبنات .

الإيضاح

(وجعلوا لله شركاء الجن) أى وجعل هؤلاء المشركون لله سبحانه شركاء من الجن ، وفى المراد من الجن هنا أقوال ، فقال قتادة : إنهم الملائكة فقد عبدوهم ؛

وقال الحسن : إنهم الشياطين فقد أطاعوهم فى أمور الشرك والمعاصى ، وقيل إبليس فقد عبده أقوام وسموه ربا ، ومنهم من سماه إله الشر والظلمة ، وخص البارى سبحانه بألوهية الخير والنور ، وروى عن ابن عباس أنه قال : إنها نزلت فى الزنادقة الذين يقولون إن الله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والحيوان ، و إبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشر ، ورجح الرازى هذا الرأى قال : إن المراد من الزنادقة لمجوس الذين قالوا إن كل خير فى العالم فهو من يزدان ، وكل شر فهو من أَهْرَمَنْ أى إبليس .

(وخلقهم) أى والحال أنه تعالى خلق الشركاء المجعولين كما خلق غيرهم من العالمين ، فنسبة الجميع إليه واحدة ، وامتياز بعض المخلوقين عن بعض فى صفاته وخصائصه لا يخرجه عن كونه مخلوقا ، ولا يصل به لأن يكون إلها وربا .

(وخرقوا له بنين و بنات بغير علم) أى واختلقوا له بحمقهم وجهلهم بنين و بنات بغير علم بذلك ؛ فقد سمى مشركو العرب الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقوله بغير علم أى من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ وصواب ، بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية ، ومن غير معرفة لمكانه من الشناعة والازراء بمقام الألوهية .

(سبحانه وتعالى عما يصفون) أى تنزه ربنا وتعالى عن كل نقص ينافى انفراده بالخلق والتدبير ، إذ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

(بديع السموات والأرض) أى خالقهما ومبدعهما ، فهو الخالق المخترع لاعلى مثال سابق .

(أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟) أى كيف يكون له ولد والحال أنه لم يكن له زوج ينشأ الولد من ازدواجه بها ، والولد لايوجد إلا كذلك، ولكن جميع الكائنات السماوية والأرضية صدرت عنه تعالى صدور إبداع و إيجاد من العدم لأصولها الأولى ، وصدور تسبب كالتوالد ونحوه على حسب سننه فى الخلق .

(وخلق كل شىء) أى خلقه خلقا ولم يلده ولادة كما زعمتم ، فما افتريتم واخترعتم له من الولد ، فإنما هو مخلوق له لا مولود منه ـ وجاءت هذه الجملة مقررة لإنكار نفى الولد ، ودليلا بعد دليل على ذلك .

(وهو بكل شىء عليم) أى إن علمه بكل شىء ذاتى له ، ولا يعلم كل شىء إلا الخالق لكل شىء ، ولو كان له ولد لكان هو أعلم به ، ولهدى العقول إليه بآيات الوحى ودلائل العلم ، لكنه كذب الذين افتروا عليه ذلك كذبا بلا علم مؤيد بوحى ولا دليل عقلى .

والخلاصة — إنه تعالى نفى عن نفسه الولد بوجوه :

(١) إن من مبدعاته السموات والأرضين ، وهى مبرأة من الولادة لاستمرارها وطول مدتها .

(٢) إن العادة قد جرت بأن الولد يتوالد من ذكر وأنثى متجانسين ، والله تعالى منزه عن المجانسة لشىء .

(٣) إن الولد كفء للوالد ، والله لا كفء له ، لأن كل ما عداه فهو مخلوق له لا يكافئه ، ولأن علمه ذاتى ولا كذلك غيره .

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه) الخطاب موجه إلى المشركين الذين أقيمت عليهم الحجة ، والإشارة إلى الله المنزه عن كل ما يصفونه به ، المتصف بما وصف به نفسه من الإبداع ، أى ذلكم الذى شأنه ما ذكر هو الله ربكم لا من خرقوا له من الأولاد وأشركوا به من الأنداد ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، لا إله إلا هو خالق كل شىء ، وما عداه مخلوق له يجب أن يعبد خالقه ، فكيف يعبده من هو مثله ويتخذه إلها .

(وهو على كل شىء وكيل) أى وهو مع تلك الصفات الجليلة الشأن متول جميع الأمور ، يدبر ملكه بعلمه وحكمته ، فيرزق عباده ويكلؤهم بالليل والنهار سرا وعلانية .

وقد يكون المعنى — إنه تعالى رقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها .

والخلاصة — إنه لا حافظ إلا الله ، ولا قاضى للحاجات إلا هو ، فعلينا أن تقطع أطماعنا عن كل ما سواه ، ولا نلجأ فى المهمات إلا إليه .

(لا تدركه الأبصار) أي لا تراه الأبصار رؤية إحاطة تعرف كنهه عز وجل ، ونحو الآية قوله : « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ » ونفى إحاطة العلم لا يستلزم نفى أصل العلم ، وكذلك نفى إدراك البصر للشيء والإحاطة به لا يستلزم نفى رؤيته مطلقا .

وبهذا يعلم أنه لا تنافى بين هـذه الآية و بين الأحاديث الصحيحة الدالة على رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب » فالمؤمنون يرونه ، والكافرون عنه يومئذ محجوبون كما قال جل ثناؤه « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » .

(وهو يدرك الأبصار) أى إنه تعالى يرى العيون الباصرة رؤية إدراك و إحاطة فلا يخفى عليه من حقيقتها ولا من علمها شىء .

وقد عرف علماء التشريح تركيب العين وأجزاءها ووظيفة كل منها فى ارتسام المرئيات فيها ، كما عرفوا كثيرا من سنن الله فى النور ووظيفته فى رسم صور الأشياء فى العينين ، ولـكنهم لم يصلوا بعد إلى معرفة كنه الرؤية ، ولا كنه قوة الإبصار ولا إلى حقيقة النور .

قال صاحب اللسان : قال أبو إسحق فى الآية : أعلم الله أنه يدرك الأبصار ، وفى هذا الإعلام دليل على أن خلقه لا يدركون الأبصار أى لا يعرفون حقيقة البصر وما الشيء الذى صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه ، فأعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه ، فـكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير ؟ .

فأما ما جاء من الأخبار فى الرؤية وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغير مدفوع ، وليس فى الآية دليل على دفعها ، لأن معنى هذه الآية إدراك الشيء والإحاطة بحقيقته ، وهذا مذهب أهل السنة والعلم بالحديث اه .

(وهو اللطيف الخبير) أى وهو اللطيف بذاته بحيث تخسأ الأبصار دون إدراك حقيقته ، الخبير بدقائق الأشياء ولطائفها ، فلا يعزب عن إدراكه شيء .

والخلاصة — إنه يلطف عن أن تدركه الأبصار ، ولكنه خبير بكل لطيف ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) .

شرح المفردات

البصائر واحدها بصيرة ، ولها عدة معان : منها عقيدة القلب ، والمعرفة الثابتة باليقين ، والعبرة ، والشاهد المثبت للأمر ، والحجة ، والقوة التى تدرك بها الحقائق العلمية ، ويقابلها البصر الذى تدرك به الأشياء الحسية ، والمراد بها هنا الآيات الواردة فى هذه السورة أو القرآن بجملته ، نصرف الآيات أى نأتى بها متواترة حالا بعد حال مفسرين لها فى كل مقام بما يناسبه ، ودرس الشيء يدرس: إذا عفا وزال فهو دارس ودرسته الريح وغيرها ، ودرس اللابس الثوب درسا : أخلقه وأبلاه فهو دريس ، ودرسوا القمح : داسوه ليتكسر فيفرق بين حبه وتبنه ، ودرس الناقة : راضها ، ودرس

الـكتاب والعلم يدرسه درسا ودراسة ومدارسة أى ذلله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه من ذلك ، والمعنى العام للدرس تكرار المعالجة ، وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به أو يصل إلى الغاية منه .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة والبراهين الواضحة على توحيده وكمال قدرته وعلمه ــ عاد هنا إلى تقرير أمر الدعوة والرسالة ، وتبليغ النبى صلى الله عليه وسلم أوامر ربه ، ومدى تلك الأوامر من الهداية والإرشاد ، وما يقوله المشركون فى المبلّغ لها ، وأعلم سبحانه سنته فيهم وفى أمثالهم ، وما يجب على الرسول معهم وما ينفى عنه .

الإيضاح

(قد جاءكم بصائر من ربكم) أى قد جاءكم فى هذه الآيات البينات بصائر من الحجج الـكونية والبراهين العقلية ، تثبت لـكم عقائد الحق اليقينية التى عليها مدار سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، تفضل بها عليكم ربكم الذى خلقكم وسواكم ، وربى أجسادكم ، وأكمل مشاعركم وقواكم كما ربى أرواحكم ، وهذب نفوسكم ، ومحص بها عقولـكم ، حتى تصل إلى منتهى ماتسمو إليه النفوس البشرية من الـكمال.

(فمن أبصر فلنفسه) أى فمن أبصر بها الحق وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، فانفسه قدم الخير وبلغ السعادة .

(ومن عمى فعليها) أى ومن عمى عن الحق وأعرض عن سبيله ، وأصرّ على ضلاله ، تقليدا لآبائه وأجداده ، فعلى نفسه جنى ، ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » وقوله : « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » .

(وما أنا عليكم بحفيظ) أى وما أنا عليكم برقيب أحصى عليكم أعمالكم وأفعالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، والله هو الحفيظ عليكم ، ولا يخفى عليه شىء من أعمالكم ، فهو يعلم ما تسرون وما تعلنون ، ويجزيكم عليه بما تستحقون ، فعليه وحده الحساب ، وما علىّ إلا البلاغ .

(وكذلك نصرف الآيات) أى ومثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات فى سائر القرآن لإثبات أصول الإيمان وتهذيب النفوس والأخلاق ، فنحولها من حال إلى حال ، مراعين فى ذلك تفاوت العقول والأفهام واختلاف استعداد الأفراد والجماعات .

(وليقولوا درست) أى إن تصريف الآيات على أنواع شتى ، ليهتدى بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام ، وليقول الجاحدون المعاندون من المشركين قد درست من قبل وتعلمت ، وليس هذا بوحى منزل كما زعمت ، وقد قالوا هذا إفكا وزوراً ؛ فزعموا أنه تعلم من غلام رومى كان يصنع السيوف بمكة وكان يختلف إليه كثيرا ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ »

(ولنبينه لقوم يعلمون) أى ولنبين هذا القرآن المشتمل على تصريف الآيات الذى يقول فيه الجاحدون إنه أثر درس واجتهاد لقوم لديهم الاستعداد للعلم بما تدل عليه الآيات من الحقائق ، وما يترتب على الاهتداء بها من السعادة دون أن يكون لديهم معارض من تقليد أو عناد .

والخلاصة — إن الذين يقولون للرسول : إنك درست هم الجاهلون الذين لم يفهموا تلك الآيات التى صرفها الله على ضروب مختلفة ، ولم يفقهوا سرها ، وما يجب من إيثارها على منافع الدنيا .

وأما الذين يعلمون مدلولاتها ، وحسن عاقبة الاهتداء بها ، فهم الذين يتبين لهم بتأملها حقيقة القرآن وما اشتمل عليه من حسن التصرف المؤيد بالحجة والبرهان .

وبعد أن بين سبحانه لرسوله أن الناس فى شأن القرآن فريقان، فريق فسدت فطرتهم ولم يبق لديهم استعداد لهديه، ولا للعلم بما فيه من تصريف الآيات، ومن ثم كان نصيبهم منه الجحود والانكار، وفريق آخر اهتدى به وعمل بما فيه - أمره أن يتبع ما أوحى إليه من ربه بالبيان له والعمل به فقال :

(اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) أى اتبع ما أوحى إليك لتربى نفسك وتكون إماما لأبناء جنسك، فإن الاقتداء لا يتم إلا بمن يعمل بما يعلمه، ويأتمر بما يأمر، ثم قرن ذلك باعتقاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فالخالق المربى للأشباح بما أنزل من الرزق، وللأرواح بما أنزل من الوحى والمعبود واحد لا شريك له وهو يجازى على الأعمال ولا يقبل شفاعة ولا فداء .

ثم أمره بعدئذ بالإعراض عن المشركين بألا يبالى بإصرارهم على الشرك، ولا بمثل قولهم درست، لأن الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الإخلاص، ولا يضره الباطل بتزيينه بزخارف الأقوال ولا بالانكباب على خرافات الأعمال؛ ثم هوّن عليه أمر الإعراض عنهم فقال :

(ولو شاء الله ما أشركوا) أى ولو شاء الله ألا يشركوا لما أشركوا بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق، ومضت سنته بأن يكونوا مختارين فى أعمالهم وفى كسبهم لعلومهم وأعمالهم، وجعل منها الخير والشر، وإن كانت غرائزهم وفطرهم كلها خيرا .

(وما جعلناك عليهم حفيظا، وما أنت عليهم بوكيل) أى وما جعلناك عليهم حفيظا تحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم عليها وتجازيهم بها، ولا وكيلا تتولى أمورهم وتتصرف فيها .

والخلاصة — أنه ليس لك ماذكر من الوصفين كما يكون ذلك لبعض الملوك بالقهر أو التراضى بل أنت بشير ونذير ، والله هو الذى يتولى جزاءهم وحسابهم .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله فيما سبق من الآيات بتبليغ وحيه بالقول والعمل ، والإعراض عن المشركين بمقابلة جحودهم وطعنهم فى الوحى بالصبر والحلم ، وبين أن من مقتضى سنته فى البشر ألا يتفقوا على دين لاختلاف استعدادهم وتفاوتهم فى درجات الفهم والفكر ، وذكر أن وظيفة الرسل أن يكونوا مبلغين لامسيطرين ، وهادين لاجبارين ، فينبغى ألا يضيقوا ذرعا بما يرون وما يشاهدون من الازدراء بهم والطعن فى دينهم ، فإن الله هو الذى منحهم هـذه الحرية ولم يجبرهم على الإيمان — نهى المؤمنين هنا عن سب آلهة المشركين ، لأنهم إذا شتموا فربما غضبوا ، وذكروا الله بما لاينبغى من القول ، ثم ذكر طلب بعضهم للآيات ، لأن القرآن ليس من جنس المعجزات، ولو جاءهم بمعجزة ظاهرة لآمنوا به، وحلفوا على ذلك وأكدوه بكل يمين مُحْرِجَة .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : « وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ» الآية، قال : قالوا يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجونّ ربك ، فنهاهم أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدْوا بغير علم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال: «لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخلن على هـذا الرجل فلنأمرنه أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحى أن نقتله بعد موته فتقول العرب : كان يمنعه ويحميه فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبىّ ابنا خلف وعقبة بن أبى مُعَيْط وعمرو بن العاصى والأسود بن البَخترى ، و بعثوا رجلا منهم يقال له المطلب فقالوا : استأذن لنا على أبى طالب ، فأتى أبا طالب فقال هؤلاء مَشْيَخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم فدخلوا فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، و إن محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه و إلهه ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه فقال له : هؤلاء قومك و بنو عمك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يريدون ؟ قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك و إلهك ، قال أبو طالب : قد أنصفك قومك فاقبل منهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أعطيتكم هذا هل أنتم معطىّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم وأدت لكم الخراج ؟ قال أبو جهل : وأبيك لنعطينّكها وعشر أمثالها فما هى ؟ قال : قولوا لا إله إلا الله ، فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب : قل غيرها فإن قومك قد فزعوا منها ، قال ياعم : ما أنا بالذى أقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها فى يدى ، ولو أتونى بها فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها ، فغضبوا وقالوا لتكفَّنّ عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك ، فأنزل الله : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) .

الإيضاح

(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) أى ولا تسبوا أيها المؤمنون معبودات المشركين التى يدعونها من دون الله لجلب نفع لهم أو دفع

ضر عنهم بوساطتها وشفاعتها عند الله ، إذ ربما نتج عن ذلك سبهم لله سبحانه وتعالى عدوا أى تجاوزا منهم للحد فى السباب والمشاتمة ليغيظوا المؤمنين . وقوله بغير علم أى بجهالة بالله تعالى وبما يجب أن يذكر به .

وفى ذلك إيماء إلى أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها ، فإن ما يؤدى إلى الشر شر ، وإلى أنه لا يجوز أن يعمل مع الكفار ما يزدادون به بعدا عن الحق ونفورا منه ، ألا ترى إلى قوله تعالى لموسى وهرون فى مخاطبة فرعون : « فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

(كذلك زينا لكل أمة عملهم) أى مثل ذلك التزيين الذى يحمل المشركين على ما ذكر حَمِيَّة لمن يدعون من دون الله ـ زينا لكل أمة عملهم من كفر وإيمان وشر وخير .

والخلاصة — إن سنننا فى أخلاق البشر قد جرت بأن يستحسنوا ما يجرون عليه ويتعودونه ، سواء كان مما عليه آباؤهم أو مما استحدثوه بأنفسهم إذا صار ينسب إليهم ، وسواء أكان ذلك عن تقليد وجهل أم عن بينة وعلم .

ومن هذا يعلم أن التزيين أثر لأعمالهم الاختيارية بدون جبر ولا إكراه ، لا أن الله خلق فى قلوب بعض الأمم تزيينا للكفر والشر ، وفى قلوب بعضها تزيينا للايمان والخير من غير أن يكون لهم عمل اختيارى نشأ عنه ذلك ، وإلا كان الإيمان والكفر والخير والشر من الغرائز الخلقية التى تعد الدعوة إليها من العبث الذى يتنزه الله تعالى عن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجله ، وكان عمل الرسل والحكماء والمؤدبين الذين يؤدبون الناس عملا لا فائدة فيه .

والخلاصة — أن تزيين الأعمال للأمم سنة من سنن الله جل شأنه سواء فى ذلك أعمالها وعاداتها وأخلاقها الموروثة والمكتسبة

(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) أى ثم إلى ربهم ومالك

أمرهم رجوعهم ومصيرهم بعد الموت وحين البعث ، لا إلى غيره إذ لارب سواه ، فينبئهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من خير أو شر ويجزيهم عليه ما يستحقون وهو به عليم .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها) أى وأقسم هؤلاء المشركون المعاندون بأوكد الإيمان وأشدها مبالغة ، لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية ليؤمننّ بأنها من عند الله وأنك رسول من لدنه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم بلغوا غاية العتو والعناد ، إذ هم لم يعدوا ما يشاهدونه من المعجزات من نوع الآيات ومن ثم اقترحوا غيرها ، وما كان غرضهم من ذلك إلا التحكم فى طلب المعجزات ، وعدم الاعتداد بما شاهدوا من البينات .

(قل إنما الآيات عند الله) أى قل أيها الرسول إنما الآيات عند الله وحده ، فهو القادر عليها والمتصرف فيها يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته وقضائه كما قال : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » فلا يمكننى أن أتصدى لإنزالها بالاستدعاء والطلب .

روى «أن قريشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدقوننى ؟ فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلت لنؤمنن جميعا ، فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا فى إيمانهم ، فهمّ عليه السلام بالدعاء فنزلت الآية» .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: «كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فقالوا يا محمد : تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى شىء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا تحول لنا الصفا ذهبا ، فقال : فإن فعلت تصدقوننى ، قالوا نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنك

أجمعين ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن شئت أصبح الصفا ذهبا ، فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم (أى عذاب الاستئصال) وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أتركهم حتى يتوب تائبهم، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: (ولكن أكثرهم يجهلون)»

(وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) الخطاب للمؤمنين الذين تمنوا مجىء الآية ليؤمنوا والنبى صلى الله عليه وسلم منهم بدليل همه بالدعاء ورغبته فى ذلك .

والمعنى — إنه ليس لكم شىء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبى الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب وهو أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية .

(ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) تقليب الأفئدة والأبصار : الطبع والختم عليها أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يدركونه ، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكمال نبوها عنه وتمام إعراضهم عن درك حقيقته وتكون حالهم حينئذ كحالهم الأولى فى عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات .

ونظير الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ومن لم يقنعه ما جاء به القرآن من الدلائل العقلية والبراهين العلمية لا يقنعه ما يراه بعينيه من الآيات الحسية ، فله أن يدعى أن عينيه قد خدعتا أو أصيبتا بآفة ، فهما لا تريان إلا صورا خيالية أو سحرا مفترى ، وهذه سنة الأولين فى مكابرة آيات الرسل .

(ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) العمه: التردد فى الأمر من الحيرة فيه ، والطغيان: تجاوز الحد أى إنا ندعهم يتجاوزون الحد فى الكفر والعصيان ، ويترددون متحيرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات، محدّثين أنفسهم أهذا هو الحق المبين أم السحر الذى يخدع

عيون الناظرين ؟ وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين ، أو المكابرة والجدل كبرا وأنفة من الخضوع لمن يرونه دونهم .

وإنما أسنده الخالق إلى نفسه لبيان سننه الحكيمة فى ربط المسببات بأسبابها ، فرسوخهم فى الطغيان الذى هو غاية الكفر والعصيان هو سبب تقليب القلوب والأبصار أى الختم عليها ، فلا تفقه ولا تبصر .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، اللهم ثبت أفئدتنا وأبصارنا على الحق ، واحفظنا من العمه والطغيان فى كل أمر ، واجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الغر الميامين وأصحابه المطهرين .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة فى الليلة الثالثة من جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية .

فهـرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء